الجمهـــورية الجـــزائرية الـــديمقراطـــية الشعبيـــة

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامـــعة ابن خلدون – تيارت–

كلية العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية

تأطير السياق عند علماء التفسير

التفسير الكبير لفخر الدين الرازي انموذجا

مذكرة مقدّمة لنيل درجة الماجستير

المشروع: الدرس الدلالي بين التراث و الحداثة

إعداد الطالب

عبد الحليم بلحرش

إشراف

الدكتور عرابي أحمد

أعضاء لجنة المناقشة

جامعة تلمسان	رئيسا	أستاذ التعليم العالي	د. مرتاض عبد الجليل
جامعة تيارت	مشرفا مقررا	أستاذ محاضر (أ)	د. عرابي أحمد
جامعة تلمسان	عضوا مناقشا	أستاذ التعليم العالي	د. عباس محمد
جامعة تيارت	عضوا مناقشا	أستاذ محاضر (ب)	د. بن شريف محمد
جامعة تيارت	عضوا مناقشا	أستاذ محاضر (ب)	د. حنجار غانم

السنة الجامعية :

1431هـ– 1432هـ/ 2010م–2011م

ceSar

إهداء

أبي العزيز:

إليك ما خطّه بياني ،وما قاله لساني، وما جاد به بياني، لأنك السبب بعد الله تعالى في أن رأى هذا العمل النور ، وخرج إلى بر الأمان .

والدتي العزيزة :

إليكِ ثمرة جهدي هذا

إلى أستاذي الفاضل أحمد عرابي .

إلى كلّ من مدّ لي يد العون من قريب أو من بعيد .

أهدي لهم هذا العمل المتواضع.

إهداء

أبي العزيز:

إليك ما خطّه بياني ،وما قاله لساني، وما جاد به بياني، لأنك السبب بعد الله تعالى في أن رأى هذا العمل النور ، وخرج إلى بر الأمان .

والدتي العزيزة :

إليكِ ثمرة جهدي هذا

إلى أستاذي الفاضل أحمد عرابي .

إلى كلّ من مدّ لي يد العون من قريب أو من بعيد .

أهدي لهم هذا العمل المتواضع.

مقدمـــــــة

الحمد لله الذي أودع في كتابه أسرار البيان ، وجعلـــه علما من معالم الهدى ورسالة خالدة على مرّ الزمان، وتحـــدّى به الناس على اختلاف ملكاتهم وتعدد قدراتهم ليظل آيته الخالدة وهداه المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفـــه، ثمّ وفّق أهل العلم في تفسيره و بيان أحكامه و الكشف عن دلالاته و إظهار إعجازه للعالمين.

أمّا بعـــــد:

فلا يزال الدرس القرآني نبعا صافيا للدراسات اللغوية عموما والنحوية خصوصا، ولـــم تبتعد الدراسات الأدبية و البلاغية عن ساحته.

وكـــان القرآن الكريم دائما هو المنهل الرئيس للعلماء قديما و حديثا في بحثهم اللغوي. فبحثوا في أسرار إعجـــازه وروائع بلاغته و فصاحته. إلا أنه يبقى دائما متجدد لا تنقضي عجائبه.

وفي رحـــاب هذا الاهتمـــام و البحث المستمر لفت انتباهنا موضوع لغوي متشعب يضرب بجذوره إلى البحث اللغوي عند العرب الأقدمين. وهو موضوع السياق الذي لم يكن بعيدا تماما عن البحث اللغوي عند علماء التراث.

ولمحاولة إثبات سبق العرب عامة و علماء التفسير خاصة لفكرة السياق ارتأينا أن يكون بحثنا هو محاولة الوقوف عند ملامح السياق في علم التفسير. ويفرض علينا هذا البحث اختيار أنموذج من التفاسير للدراسة ، وكـــان هذا النموذج هو التفسير الكبير لفخر الدين الرازي.

وأول سبب جعلني أختار هذا التفسير هو توفره في مكتبتي الخاصة، ثم إن هذا المفسر لم يحض بالعناية الكبيرة و الدراسة الكافية سوى بعض الدراسات التي درسته كعلم من أعـــلام الفلسفة.

واتفقت في الأخير مع أستـــاذي المشرف الدكتور أحمد عـــرابي على أن يستقر عنوان موضوع البحث على الصيغة الآتية.

تـــأطير السيـــاق عند علمـــاء التفسير (التفسير الكبير لفخر الدين الرازي أنموذجا).

نحاول من خلال هذا البحث الإجابة على إشكال رئيس هو:

- هل تنبّهَ المفسرون لفكرة السياق، وتقيّدوا بها ؟

ثم يتبع هذا السؤال الرئيس تساؤلات فرعية من بينها:

- هل احتوى منهج علماء التفسير على مفردات السياق ؟
- ما هي أسباب إعمالهم السياق ؟
- كيف يكون للسياق دور في تأسيس المعنى و الإرشاد إليه ؟

و لأن هذا البحث يتراوح بين التنظير و التطبيق فإنه جاء يتتبع المنهج الوصفي التحليلي، وغلب عليه الجانب التطبيقي. وتضمن هذا البحث هذه المقدمة ، ومدخل ، وثلاثة فصول ، وخاتمة.

أمـــا في المدخل فحاولت الإشارة إلى شخصية شيخ الإسلام فخر الدين الرازي، وإلى تفسيره الكبير(مفاتيح الغيب). ثم يلي هذا تعريفٌ للسياق و ذكرٌ لأنواعه، و مفهومه عند الغربيين. ثم محاولة الوقوف عند ملامح السيـــاق عند علمـــاء التراث عامـــة و المفسرين و الأصوليين خاصة.

و أما الفصل الأول، فكان عنوانه : أثر الساق في اختيار الألفاظ.

وقسمته إلى خمسة مباحث:

- أثر السياق في اختيار الكلمة.
- المشتقات وملاءمتها للسياق.
- أثر السياق في اختيار المفرد و الجمع.
- مجالات استخدام الكلمة القرآنية.
- أثر السياق القرآني في التطور الدلالي للكلمة.

وقد حاولت في هذا الفصل أن أثبت سبق المفسرين لفكرة السياق من خلال عنايتهم بالكلمة و دلالتها المعجمية، و هيئتها الصرفية، وموضعها داخل السياق.

وجاء الفصل الثاني بعنوان : أثر السياق في اختيار التراكيب، وذكرت في هذا الفصل لمحة تنظيرية عن علاقة علم النحو بعلم المعاني، وكيف يكون للسياق النحوي دور في توجيه المعنى، و اشتمل هذا الفصل على ثلاثة مباحث :

- التقديم و التأخير.
- الحذف
- أسلوب الاستفهـــام.

من خلال هذه المباحث حاولت أن أقف عند أثر السياق في تقديم الألفاظ على بعضها وحذفها. ثم أثره في اختيار الأساليب التعبيرية المناسبة، بالإضـــافة إلى معرفة مدى إعمـــال الرازي للسياق النحوي في الكشف عن المعنى.

وجاء الفصل الثالث بعنوان : تأطير السياق على مستوى السورة.

وقسمته إلى أربعة مباحث:

- علاقة الفواتح بالمقاصد.
- أثر السياق في فهم دلالة الفواصل و الخواتم.
- التكرار.
- الربط بين الآية و الآية.

في هذا الفصل حاولت أن أبحث عن العلاقة بين هذه المباحث و المفهوم الاصطلاحي للسياق، و أن إثبات الرازي لفكرة التناسب و الربط هو إثبات للسياق.

ولعلّ من أهم الصعوبات التي واجهتنا في هذا البحث هو رسم خطة منهجية متماسكة يمكنها أن تلمّ بمختلف أطراف الموضوع المراد دراسته. بالإضافة إلى ندرة الأبحـــاث وقلـــة المراجع التي تناولت الموضوع بعمق ودقة وتفصيل . و كذلك فإن معظم آراء الرازي اللغوية و جهوده النحوية و البلاغية كانت عبارة عن إشارات يشير إليها في كتبه التي هي عبارة عن مجلدات كبيرة ، الأمر الذي يصعّب من مهمة جمعها و العثور عليها.

أمّا عن التفسير الكبير فَكِبَرُ حجمه وغزارة معلوماته كانت بمثابة العائق الذي لا يمكن تجاهله .

هذا ولا يدّعي الباحث أنه قد وفّى الموضوع حقَّه من البحث والدراسة، وإذا كان قد قصّر في شيء منه أو عجز عن الوفاء بما يستوجبه من الاستقراء والتحليل، أو التحقيق والتمحيص؛ فَعُذْرُه أنّه قد بذل غاية ما يستطيع في التقصّي والاسترشاد، وأن الطريق الذي

نهج لم يكن في كل مسالكه مطروقاً، فضلاً عن أن القرآن الكريم لا تنقضي عجائبه ولا يزال يتفجر عن بحار من المعاني، تفنى الأعمار عن متابعتها.

والله أسأل أن ينفع بهذا العمل كاتبه وقارئه وكل من كان له فيه سهم، آمين.

الطالب : عبد الحليم بلحرش

تيارت في : 14 - 06 - 2010

المدخـــل

ملمح عام في السياق

01- فخر الدين الرازي.

02- السياق.

فخر الدين الرازي:

01- مولـــــده :

هو فخرالدّين الرّازي أبو عبد الله محمد بن عمر التميمي بن حسين القرشـــي الطبرستـــاني الأصل ، الشافعي المذهب ، المفسر ، المتكلم الأصوليّ المتطبّب ([1]). ولـــد في مدينة الرّي سنـــة 544هـــ الموافق 1149 م ([2]) . عُرف بالإمام،حتى أنّ علماء الأصول إذا نقلوا عنه قالوا:وقال الإمام ، أو و عند الإمام ، و إذا قالوا: قال الإمام ، بدون ذكر اسم بعده لم يريدوا غيره في كـــل عباراتهم وكتبهم ([3]).

ومن أبرز الألقاب التي عرف بها : ابن الخطيب ،والإمام، و فخر الدين الرازي و شيـــخ الإسلام ، ولقبُه بالإمام فخر الدين الرازي هو الأكثر شيوعا ، وبه يتميز عن مجموعة من المشاهير الذين انتسبوا إلى الرّي ([4]).

02- *نشـــــأته :*

نشأ فخر الدين الرازي في أحضان أسرة متمسكة بأهداب الدين ، وتحت رعاية والد فقيه واعظ ([5]) . تلقّى العلم عن أبيـــه ضياء الدين المعروف بخطيب الرّي .كـــان رحمه الله فريـــد عصره ، ومتكلم زمانه ، جمع كثيرا من العلوم ونبغ فيها ، فكان إماما في التفسير والكلام والعلوم العقلية ، وعلوم اللغة .

ولقد أكسبه نبوغه العلمي شهرة عظيمة، فكان العلماء يقصدونه من كل البلاد، ويشدّون إليه الرّحال من كلّ الأقطار ([6]).

كان الفخر كثير الإجلال و الاحترام لوالده ، وكان يدعوه بالشيخ السعيد ، وبعد وفـــاة والده التحق بالكمال السمنّاني ، وأخذ عنه الفقه . ثم عاد إلى الرّي ، وقصد المجد الجـــيلي ودرس على يديه مذاهب المتكلمين و الفلاسفة ، و عندما انتقل الجيلي إلى "مراغه " للتدريس فيها رافقه الإمام ، ودرس عليه أيضا الفرابي و ابن سينا ... واخذ أيضا عن أحد متكلمي الشيعة وهو محمود ابن علي الحمصي([7]).

---

[1])- فخر الدين الرازي أبو عبد الله محمد بن عمر ، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط 03 ، ج 01/ص ج.
[2])- سميح دغيم ، موسوعة مصطلحات الإمام فخر الدين الرازي، مكتبة لبنان ناشرون،ط 01 ، 2001 ، ص 05 – 06 .
[3])- فخر الدين الرازي ، المصدر السابق ، ج 01 / ص ج .
[4]) – سميح دغيم ، المرجع السابق ، ص 08 .
[5])- ينظر : محمد عبد القادر هنادي ، جهود الفخر الرازي في النحو و الصرف ، رسالة دكتوراه ، 1985 ، ص 12.
[6])- محمد حسين الذهبي، التفسير و المفسرون ، دار الحديث القاهرة ، 2005/1426 ، ج 01 / ص 248.
[7]) – سميح دغيم ، موسوعة مصطلحات الإمام فخر الدين الرازي ، ص 06.

وفي حدود 580 هـــ توجّه إلى بخاري للاتصال ببني مازة ، وكانت شهرته قد سبقته إلى سمرقند ، حيث كانت بعض كتبه كالمباحث الشرقية ، وشرح الإشارات ، والتنبيهـــات ، تدرس هناك ، وكان الإمام قد مرّ أثناء رحلته هذه في طوس ونزل في صومعة الإمام الغزالي([1]) .

وبعد أن طوّف الفخر بكثير من مدن إيـــران و تركستان و أفغانستان والجزء الغربي مـــن الهند , انتهـــى به المطاف إلى مدينة هراة ، حيث قصدها عام 600 هـــ ، أي : قبل وفاته بست سنوات .

وكان الفخر في أبّهة عظيمة ، فلمّا ورد إليها تلقّاه السلطان وأكرمه إكراما كثيرا ,ونصب له بعد ذلك منبرا وسجّادة في صدر الديوان من الجامع ليجلس في ذلك الموضع، ويكـــون له يوم مشهود يراه فيه سائر الناس ويسمعون كلامه.

وأثناء إقامته بهراة لقّب بـــ " شيخ الإسلام "، واتصل ببهاء الدين سام أمير باميان أهداه كتاب " البراهين البهائية "، وذلك سنة 606 هـــ ، غير أن سفره إلى باميان لم يحصل بسبب وفاة الأمير نفس العام .

لم يثبت أن الإمام الفخر قد زار بغداد ومصر كما يقول البـــعض ، إلاّ أن المعروف هو أنّه أمضى سنوات حياته الأخيرة في هراة حيث توفي عام 606 هـــ.

ويبدو من خلال هذا العرض أنّ الفخركان كثير التنقل و الترحال، مـــمّا أتاح له الاتصال بكثير من السلاطين و الأمراء، وبكثير من أصحاب المذاهب الفكرية المتعددة كالمعتزلة، والأشعرية والكرامية . هذا الاتصال خَلَقَ له إلى جانب تلك الصداقات الكثيرَ من العداوات التي حملت له أحيانا الإهـــانة. وأقلقت بالَه و دفعته إلى الطلب من أصحابه و هو على فراش الموت أن يُدْفَن في الجبل المصاقب لقرية مزداخان خوفا من أن يُمثـــــّل بجثته([2]).

03-صفـــــــاته :

جاء في التفسير الكبير أنه:«كان الإمام فخر ربع القامة, عبل الجسم,كث اللّحية ,جهوري الصوت ، صاحب وقار وحشمة , له ثروة ومماليك , وبزّة حسنة وهيئة جميلة»([3]).

---

[1])- ينظر : سميح دغيم ، موسوعة مصطلحات الإمام فخر الدين الرازي ، ص 06.
[2])- ينظر : محمد عبد القادر هنادي ، جهود الفخر الرازي في النحو و الصرف ، ص : 32.
[3])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 01/ ص و .

ومن صفاته الخُلُقية أنه امتاز بكثرة محاسبته لنفسه واعتماده على الله كل الاعتماد،وعُرِف الرازي رحمه الله برقّــة نفسه وشفافيتها ، وكثرة بكائه([1]).

روى السبكي أنّه دخــل بعض أصحابه عــليه يوما فوجده باكــيا حزينا فـــسأله عــن ذلك ، فقال : كنت أعتقد فــي بعض المســالك اعتقادا منذ مدة ، وأزعــم أنّ ذلك هو الصواب ، وأنّ ما عداه خطأ ، حتى وقع إليّ بعض المحصلين فيــها ، فرأيت أنّ اعتقــادي كان باطلاً في هذه المدة ، فما يؤمّنني أن يكون جميع علومي بهذه الصفة ([2]).

وعرف عن الرازي أنّه كان يهذب نفسه بالصلاة و الصيــام حتى اتخذ لنفسه منها أورادًا لا يتخلى عنها .

أمّــا عن معاملاته مع غيره فقد ورد في التفسير الكبير أنه ذو باع طويل في الوعظ , وقوّة تأثير نفسية .فيبكي سامعوه من شدّة وقع مواعظه في قلوبهم ، وسحرها في أفئدتهم. فقد كان الفخر يعظ باللسانين العربي و العجمي , ويكثر البكاء في حال الوعظ ([3]).

وكان يحضر مجلسه في مدينة هراة حشد كبيــر من أرباب المذاهب و المقالات ، بــل من الحكام وأهل السلطة أيضا، وكان يجيب على كل سؤال بأحسن إجابة. فقد كان لوعظه أثر كبير في قلوب الناس , حتى أنّ طائفة كبيرة من الكرامية و غيرهم من الطوائف رجعوا إلى مذهب أهل السنّة بسببه .

ومن صفاتــه أيضا الجــود والكرم ، وقد جاء في التفسير الكبير ما يلي : « قال الشمس المذكور: وبينما نحن عنده في ذلك الوقت ، واليوم شات ، وقد سقط ثلجٌ كبير ، وخوارزم بردُها شديد إلى غاية ما يكون ، وإذا بحمامة في دائرة الجامع وراءها صقر يكاد أن يقتنصها ، وهي تطير في جوانبه إلى أن أعْيَت ، فدخلت الإيوان الذي فيه الشيخ ، ومرَّت طائفةً بين الصفّين إلــى أن رمَتْ بنفسها عنده ونجَتْ »([4]).

و للفخر قصص كثيرة في كرمه و جوده، من ذلك مــا حكاه شرف الدين بن عنين أنه حصل له من جهة الرازي و بجاهه في بلاد العجم نحو ثلاثين ألف دينار([5]) .

---

[1])- ينظر: محمد عبد القادر هنادي ،جهود الفخر الرازي في النحو و الصرف ، ص 12 – 13 .
[2])- ينظر : المرجع نفسه ، ص : 13 .
[3])- ينظر : فخر الدين الرازي، التفسير الكبير ، ج 01 / ص ز .
[4])- المصدر نفسه ، ج 01 / ص ح .
[5])- ينظر : المصدر نفسه ، ج 01 / ص ط .

ومن شعره فيه قصيدة له ، وقد سيّرها إليه من نيسابور إلى هراة ، يقول فيها :

ريح الشمال عساك أن تتحمّــلي خدَمي إلى الصدر الإمام الأفضل.
وقفي بواديــه المقدّس و انظري نــور الهدى متألّقا لا يأتلـــــي .
من دوحـــــة فــخرية عمريــة طابت مغارس مجدها المتأثـــــل.
...بحر تصدر للعلوم ومــن رأى بحرا تصدّر قبـــــله فــي محفل.
و مشــمّر فــي الله يحــب للتقى والدين سربال العفاف المســبل.
مــاتت به بــدع تمادى عمــرها دهرا وكاد ظلامها لا ينجلــي.
فعلا به الإســـــلام أرفعَ هضبــة وَرَسَا سواه في الحضيض الأسفل.
... يعفو عن الذنب العظيم تكرّما ويجود مسؤولا وإن لم يُسأل ([1]).

04 - *عصـــــــــــره :*

قال صاحب موسوعة مصطلحات الفخر الرازي : « تميز العصر الذي عاش فيه فخر الدين الرازي ببداية الانحطاط والانهيار الفعلي للحضارة العربية الإسلامية » ([2]) ، وذلــك لكثرة الدّول والدويلات والصراعات السياسية والخطر المغولي الذي داهم هذه المماليك في بداية القرن السادس و السابع الهجــري ، بالإضافة إلى ضغوطات مختلفة في مختلف نواحي الحياة السياسية و الفكرية و الدينية ، وحتى الاقتصادية .

و قد شهد العالم العربي و الإسلامي في هذا العصر خطرًا كبيــرًا تمثل في الحملات الصليبية الوافــدة من الغــرب ، وطلائــع التتار الزاحــفة من شمال الشرق الأقصى ، خصوصا مــع تولّــي (جنكيزخان) الحكم و اجتياحه بلاد خوارزم ، ودخوله إلى بخاري و سمرقند و الــرّي عام 620هــ .

أمــام هذه التحدّيات ظهر عند المسلمين توق إلى التوحّد لمواجهة هذين الخطرين ، ووُفِّقوا لأن يحققوا شيئا من الوحدة و النهضة في آن واحد ، في طــرفي العالم الإسلامي. فقــد توحّــد

[1])- ينظر: فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 01 / ص ط.
[2])- سميح دغيم ، موسوعة مصطلحات الإمام فخر الدين الرازي ، ص 07 .

المغـــرب بفضل البربر (الموحدون و المرابطون) ، وتوحّـــد الشـــرق بفضل الأتـــراك (قوة السلاجقة) ، ثم (الخوارزميين)بخاصة ([1]).

ولقد عاش الرازي معظم حياته في القرن السادس الهجري ، وشهـــد السنين الستّ الأولى من القرن السابع الهجري ، وكان الوهـــن قد بلغ مداه بالدولة العباسية ، وإن كان بعض الخلفاء في هذه الفترة قد استعادوا سلطانهم و قد ساعدهم على ذلك ما دبَّ من خلاف بيـــن ملوك السلاجقة ، وما كان بين السلاطين الخوارزمشاهية و السلاطين الغورية ومن هؤلاء الخلفاء:

المستنجـــــد بالله (555هـــ ـــــ 566 هـــ).

المـــستضيء بالله (566هـــ ـــــ 575 هـــ).

الناصر لدين الله (575هـــ ـــــ 622 هـــ).

وقد كان الأول من خيار الخلفاء وأعدلِهم ,وأرفقهم بالرّعايا ، حيث منـــع عنهم المكوس والضرائب ، وحارب الفساد بشدة . اتّصف بالفهم الثاقب والرأي الصائب . و في أيّامه اتسعت رقعة القتـــال بين المسلميـــن والصليبيين وكانت الساحة بلاد الشام و مصر , و هاجمت الكرج عام 557 هـــ المسلمين ونهبوا وسلبوا .فاجتمع لهم أهل حكام أذربيجان ومراغه وخلاط وثأروا منهم .

وأمّا الثـــاني فبويع يوم مات أبـــوه صبيحة يوم الأحد في التاسع من شهر ربيـــع الثـــاني عام 566 هـــ، وكان من خيار الخلفاء ، آمرًا بالمعروف ناهيا عن المنكر ،حليما وقورا ,كريما.وفي أيّامه ضعف الرفض ببغداد ووهى، وأمِـــنَ الناس , ورُزق سعادة عظيمة في خلافتـــه، وفي عهده انتهت الدولة العبيدة بمصر.

أمّا الناصر لدين الله فبويع سنة 575 هـــ ، و لم يكن في أيّامه خليفة ســـواه . وفـــي عهده ضعف الصليبيون،وظهر الأيوبيون وعلا سلطانهم,وفتح صلاح الدّين القدس عام583 هـــ،ثم توفي سنة 589 هـــ , فكانت مصر لابنه عماد الدين ، ودمشق لابنه الأفضل نور الدين عليّ , و حلب لابنه الملك الظاهر غياث الدين ([2]).

---

[1])- ينظر: سميح دغيم ، موسوعة مصطلحات الإمام فخر الدين الرازي ، ص : 07 .

[2])- ينظر: محمود شاكر ، التاريخ الإسلامي ،المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط 01 ، 1405 هـ/1985 م، ج 06 / ص 299 – 313 .

ومن أهمّ الدول التي عاصرها فخر الدين الرازي الدولة الغـــزنوية (351 هـــ -582 هـــ) والدولة السلجوقية (429 هـــ ـ591 هـــ)، والدولة الخوارزمية (471 هـــ ـ629 هـــ)، والدولة الغورية (543 هـــ ـ 615 هـــ) .

وكان الصراع بين هذه الدول التي نشأت في مناطق متعددة من العالم الإسلامي آنذاك سببا للتناحر على السلطة , والتفرّد بها ، و لنشوء جو سياسي قلق , إضافة إلى أنّها ثبـــّتت الخلافات المذهبية الحادة بين المسلمين , فكانت هذه الفترة أحرج الفترات في حياة الأمة الإسلامية.

ومن أهمّ الصراعات الفكرية العقائدية و المذهبية ما نشب بين الشافعية والحنفيـــة ، وبيـــن الأشعرية والحنابلة([1]) .

في هذه الأجواء السياسية المضطربة عاش الفخر الرازي وتأثر بها , وأثّر فيها ، و آيةُ ذلك أنّه مدح السلطان علاء الدّين خوارزم شاه حين كسر الغوري فقال :

الدين ممدود الرّواق موطّـــــد *** والكفر محلول النّطـــــاق مبـــدد.

بعلاء الدين والملـــك الـــذي *** أدنى خصائصـــه العلا و الســـؤدد.

شمس يشق جبينه حجب الدجى *** واللّيل قاري الدجنـــــة أسود.([2])

وقد عمل الرازي عند السلطان علاء الدين مربّيا لولـــده محمد . فلّما أصبح محمد سلطانا بعد والده قربه وأعلا منزلته.

كما كانت للـــرازي أيضا صلات بملكي الغـــوريين السلطانين غيـــاث الدين وأخيـــه شهاب الدين .([3])

05- حياته الاجتماعيـــــة :

لم تكن الأحوال الاجتماعية بأفضل من الأحوال السياسية، بل كانت موازية لـــها ، فانتشر الغلاء والظلم , وكثرت اللصوص , وظهر الاحتيال في المعاملات . فقـــد كانت جمـــاعة من الأكراد يشنّون الغـــارات على بلاد النـــوبة وما جاورها ، ويحصلون على الغنائم ([4]).

---

[1])- يُنظر : عبد المتعال الصعيدي ، القضايا الكبرى في الإسلام ، دار شريفة ، بوزريعة ، الجزائر، 1991 ، ص : 304 - 344.

[2])- فخر الدين الرازي : التفسير الكبير ، ج 01 / ص ك .

[3])- ينظر : محمد صالح الزركان ، فخر الدين الرازي و آراؤه الكلامية و الفلسفية ، دار الفكر ، د ط ، ص: 08 .

[4])- ينظر : محمود شاكر ، التاريخ الإسلامي ، ج 06 / ص 320 .

في هذه الظروف تدهـــورت الحالة الاجتماعية ، فقد كان المجتمع مؤلّفا من عرب و فرس وأتراك , و أكـــراد ، وتعددت الألسن. إلاّ أنّ الفارسية ازدهرت بعض الازدهار ، وكان لـــها شعراؤها الكبار .

و في هـــذه الحقبة انقسم المجتمع إلى طبـــقات ، حيث كانت هناك طبـــقة السلاطيـــن الأثرياء، وغيرهم من أصحاب النّفوذ , وكانت طبقة الجيش وقادته ، والتجار ، والأطباء.

وكان العامة يؤلّفون السواد الأعظم من النّاس ، ومنهم الجند والصناع , والفلاحين ,وقـــد ابتلي معظمهم بالفقر والمرض ([1]).وكان الإمام من طبقة الأثرياء الذين يملكون ثروة طائلة.

وفي هذه الظروف لا يمكننا أن ننكر عمل السلاطين على تحسين ظروف مجتمعاتهم، والعمل على العدل وحسن السيرة،ورفع الضرائب و المكوس, ومحاربة الفساد,كالذي قام به المستجد بالله والسلطانين المستضيء بالله والناصر لدين الله. وقد ذكرنا ذلك فيما تقدم.

06- حياتـــه الثقافيـــــــة :

في وحل هذه الظروف السياسية والاجتماعية المضطربة التي أصابت العالـــم الإســـلامي في القرن السادس الهجري , نرى أن الناحية التي كانت تبعث على الارتياح في هذا العصر هي العناية التي أولاها السلاطين بالتعليم و النهوض بوسائله. وآية ذلك عناية السلطان علاء الدين و ولـــده محمد بالإمام الرازي و رفع منزلته، وممّا يميز هذا العصر أنّـــه ازدهر بالعلوم والآداب .

فها هو ابن جبير يصف بغداد وتدهورها في سنة 580 هـــ فيقول :« هذه المدينة العتيقة وإن لم تزل حضرة الخلافة العباسية , و مثابـــة الدعوة الإسلامية القرشية الهاشمية ، قد ذهب أكثـــر رسمـــها , ولم يبق منها إلاّ شهير اسمها . و هي بالإضافة إلى مـــا كانت عليـــه من قبل إنحاء الحوادث عليها والتفات أعين النوائب إليها كالظل الدارس و الأثر الطـــامس , أو تمثـــال الخيال الشاخص ...» ([2]) . ثم يصف أهلها واهتمامهم بالعلم والوعظ والتدريس فيقول : « فأوّل مـــا شهدنا مجلســـه منهـــم الشيخ الإمـــام رضي الدين القزويني رئيـــس الشافعية , و فقيه المدرسة النظامية ... حضرنا مجلسا بالمدرسة المذكورة إثر صلاة العصر مـــن يـــوم الجمعة الخامس لصفر المذكور فصعد المنبر , وأخذ القراء أمامه في القراءة على كراسي موضوعة ...»([3]).

---

[1])- ينظر : محمد عبد القادر هنادي ، جهود الفخر الرازي في النحو و الصرف ، ص 05 .
[2])- ابن جبير أبو الحسين محمد بن أحمد ، رحلة ابن جبير، دار صادر ، بيروت ص 193.
[3])- المصدر نفسه ، ص 195.

و لم يتهـــاون سلاطين هذا العصـــر على بنـــاء المدارس و الاهتمام بها , فكانت المدارس كثيرة ، و العناية بها كبيرة . يقول بن جبير و هو يتحدث عن بغداد : «... و المدارس بهـــا نحو الثلاثين ، و هي كلها بالشرقية ، و ما منها مدرسة إلاّ وهي يقصر القصر البديع عنها،وأعظمها وأشهرها النظامية , وهي التي ابتنـــاها نظام الملك »([1]) . و قد تنافس العلماء لاحتـــلال مقاعد الدّرس في هذه المدرسة لعلوّ مكانتها , وسعة شهرتها.

أمّا الرّي ، المحيط الصغير الذي وُلِد فيه الرازي وترعرع , فالناظر في تاريخها يجدها مسرحا لمختلف الآراء والأفكار , و المذاهب حتى ليخيّل إليه أن هذه المدينة معرض يشمل على نماذج من كل ما كان في البيئة الإسلاميـــة الكبرى من الآراء , والمذاهب ، وكلها تتعايش في هذه البيئة الصغيرة بشكل يدعو إلى العجب .

وعُرف هذا العصر بكثرة المكتبات , واختـــلاف العلـــوم ، فاتسعت الدراسات في العلوم الدينية والعربية ، وأخذ عدد غير قليل من العلماء في دراسة العلوم الحكيمة كالمنطق مثلا، وكثرت الفرق الكلاميـــة ، و طال الجدال بينها و اشتد الصـــراع ، وكان الرازي لا يخرج عن هـــذه الصراعات. ومن ذلك ما ذكرناه في مواجهته لأهل خوارزم في أمور العقيدة.

وحَسْبُ هـــذا العصر أنه ظهرت فيـــه مجموعة كبيرة من العلماء المتمكنين ، منهم الشاشي في الفقه والتفسير , والزّمخشري , وابن الأنباري في العراق وبلاد ما وراء النّهر ، ومنـــهم في بلاد الشام , ومصر ,والأندلس .وبرز في الفلسفة ابن رشد , وفي التاريخ الهمذاني وابن الجوزي .

وهكذا كانت الثقافة في العصر واضحة المعالم ، راسخة القواعد ، هيّأت لأن يظهر كوكب يكون قطب الاهتداء للحركة الثقافية الإسلامية . إنّه الإمام فخر الدين الرازي.

07 – مذهبـــــــــه:

كان الفخر سنّيا أشعريا , دافع عن عقيدة أهل السنة والجماعة في كثير من كتبه , و تفسيره مليء بتأييده لهم ,والردّ على سائر الفرق التي تخالفهم . يقول في تفسيره لقوله تعالى :﴿ **وَإِذْ قُلْنَـــا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾([2]) : « اعلم أنّ جمـــاعة من أصحابنا يحتجّون بأمر الله تعالى للملائكة بسجود آدم عليه السّلام، على أنّ آدم أفضل من الملائكة، فرأينا أن نـــذكر هـــذه المسألة فنـــقول : قال أكثر أهل السنة : الأنبيـــاء أفضل من

[1])- ابن جبير ، رحلة ابن جبير، ص 205.
[2])- البقرة : 34 .

الملائكة , وقـــالت المعتزلة : بل الملائكة أفضل مـــن الأنبياء وهو قول جمهور من الشيعة , وهذا القول اختيار القاضي أبي بكر الباقلاني من المتكلّمين منا » ([1]) .

ففي قوله : (جماعة من أصحابنا) دليل على أنّه من أهل السنة ، و في قوله : (أبـــي بكر الباقلاني من المتكلّمين منّا) دليل على أنّه أشعري.

08 - مكانته الفكريـــة :

يعتبر الرازي من أبرز أعلام الفكر الذين ساهموا في تطوير الفكر العربي الإسلامي , لكنـــه في الحقيقة لم يحظ بالاهتمام المناسب من قبل الباحثين والمحققين . فكتبه المحققة , والدراســـات حـــوله محدودة .

وما عُرف عن موقف الرازي من منطق أرسطو أنه عزله عن دلالته المضمونية،أي:عن مادته المعرفية والاكتفـــاء فقط بالجانب الشكلي , وهذا موقف المتأخرين من علماء الكلام في القرن الخامس الهجري كالغزالي ، ومن بعدهم الإمام الفخر الرازي في القرن السادس الهجري ([2]).

وقد استفـــاد الفخر ممّا آلت إليه الأمـــور في عصره ، لأجل بناء علم عقائدي يرتكز على العقل، وينطلق من الفاعل إلى الفعل ومن المؤثر إلى الأثر.

09- مؤلفـــاتـــــــه :

اتخذت بعض مؤلفات الفخر الرازي الطابع الموســـوعي الذي يعرض فيه مختلف آراء الذين سبقوه قبل أن يدلي بدلوه فيـــها، الأمر الذي يبين لنا غزارة إنتاجه و سعة اطلاعـــه على علوم عصره,وعلوم الأوائل. فقد كان من أفضل علماء عصره في الفقه وعلوم اللّغة, والمنطق, والمذاهب الكلامية ، ومن أبرعهم في الطب والحكمة، فشـــاع فضله ، وذاع صيته بين النّاس , وتوافد إليه الطلاب من كل بلد واغترفوا من علومه ومعارفه.

وكان رحمه الله صحيح النظر ، بليغ القول , جيّد التعبير عن كل ما يقصـــد إليه بيانه ,ترى هذا واضحا في عباراته في التفسير , وغيره من مؤلفاته العديـــدة.

و لقد اختلف المؤرخون اختلافا كبيرا في عدد مؤلفاته, وفي صحة نسبة بعضها إلـــيه. يقول صاحب موسوعة المصطلحات للإمام الفخر الرازي : « فالأصفهاني ذكر في الشذرات أنـــّها لا تتعدى الأحد عشر كتابا ,و السبكي في طبقاته يرفـــعها إلـــى ثلاثة وعشرين ,وفي أخبار العلماء

[1])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 02 / ص 215 .
[2])- ينظر: سميح دغيم ، موسوعة مصطلحات الإمام فخر الدين الرازي ، ص 09 – 10 .

للقفطـــي تقفز إلى ستين , ومع ابن كثير، في "البداية والنّهاية" تصبح مؤلفات الرازي في حدود المائتي كتاب تقريبا »([1]).

و قال فتح الله خليف : « و قد بلغت مؤلفات الرازي أكثر من مائة كتاب في مختلف العلوم و الفنـــون المعروفة في عصره ، كَتَبَ في اللغة العربية و آدابها ، و الفقه و أصولـــه ، والتـــفسير و الكلام و الفلسفة ، كما صنَّفَ في الطبّ و الكيمياء و الهندسة ... و يقال أنه صَنَّف في السحر و التنجيم »([2]).

وليس مـــن السهل أن نجـــزم في أسماء كتب الرازي وعددها ، ذلك أنّ الكثير من العناوين المنسوبة إليه لم يُعثـــر عليه كمخطوطات ، و إنما ذكره الرازي في كتبه المتوفرة ، أو ذكره بعض الرواة في مصنفاتهم .

ومن أهمّ الكتب المنسوبة للفخر نجد في التفسير كتاب مفاتيح الغيب " المشهور بالتفسيـــر الكبير" ، و "أسرار التنـــزيل".

و في علم الكلام نجد : "تهذيب الدلائل و عيون المسائل"، و" أساس التقديس" ، و " الزبدة في علم الكلام" ، و " المعالم في أصول الدين ".

و في المنطق و الفلسفة و الأخلاق نجد :

- أقسام اللذات .
- الأخلاق.
- مباحث الوجود و العدم .
- الملخص في الفلسفة.

و صنّف الفخر في اللغة العربية و علومها " نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ". و في التاريـــخ و السير " مناقب الإمام الشافعي ". وفي الرياضيات " الهندسة " .

و كَتَب في الطب " التشريح من الرأس إلى الحلق "و " مسائل في الطب " .

10 - *التعريف بمؤَلَّفه (التفسير الكبير):*

اشتهر بين الناس بهذا الاسم ،و باسم "مفاتيح الغيب". يقع في اثنين وثلاثين جزءا ، و مؤلّفه هو الإمام فخر الدين الرازي محمد بن عمر الشافعي.وتضاربت الأقوال حول هذا التفسير في كونه

[1])- سميح دغيم ، موسوعة مصطلحات الإمام فخر الدين الرازي ، ص 12 .
[2]) - فتح الله خليف ، فخر الدين الرازي ، دار الجامعات المصرية ، 1976، ص 22 – 23.

كلّــه مـــن تأليف الفخر، أم لم يتممه و أتـــمّه غيره . فمنهم من قال أكمله الرازي ، ومنهم من قال أكمله غيره . واختلف الفريق الثاني في من أكمل التفسير .

قال جمال الدين أبو الحسن القفطي (646 هـــ) وهو ممن ترجم للرازي لعصره : « كـــان في زمـــاننا الأقرب ...من تصانيفه كتاب تفسير القرآن الكبير ، سمّـــاه مفاتيح الغيب . سوى تفسير الفاتحة ، و أفرد لها تصنيفا . اثني عشر مجلدا بخطه الدقيق »([1]).

إن الذين يقولون أنّ الفخر أكمل التفسير يعتبرون قولَ القفطي دليلا يرجح رأيهم ، و ذلك لقرب عهد هذا الأخير من عهد الإمام.وقوله: (بخطه الدّقيق) برهان على رؤيته للنسخة ، ثم تزداد مصداقية هذا الرأي بتفصيل القفطي لأجزاء هذا التفسير .

و يجعـــل أصحاب هذا الرأي السيوطي في صفّهـــم ، فهو لم يجعل القمـــولي ولا شهاب الدين في قائمة المفسرين.

أمّـــا عن أصحاب الرأي الثاني ، واختلافهم حول من أكمل التفسير فيسعى الذهبي لإيجاد حلّ لهذا الاختلاف ، فيقول : « و الذي أستطيع أن أقوله كحل لهذا الاضطراب : هو أنّ الإمام فخر الدين،كتب تفسيره هذا إلى سورة الأنبياء، فأتى بعده شهاب الدين الخويي، فشرع في تكملة هذا التفسير ولكنه لم يتمّه، فأتى بعده نجم الدين القمولي فأكمل ما بقي منه، كما يجوز أن يكون الخويي أكمله إلى النهاية ، و القمولي كتب تكملة أخرى »([2]) .

ويسمي الفخر تفسيره بـــ (التفسير الكبير) تحديّا لخصومه بأنه من الممكن توليد المسائل الكثيرة من المسألة الواحدة . و تسميته (مفاتيح الغيب) دلالة على أنه نستطيع أن نعلم من الغيب ما لنا عليه دليل ([3]).

---

[1])- جمال الدين أبوالحسن القفطي ، تاريخ الحكماء ، مطبعة الخانجي ، د ط ، ص : 292.

[2])- محمد حسين الذهبي ، التفسير و المفسرون ، ج01 / ص 251.

[3])- ينظر : عمارة الناصر ، اللغة و التأويل ، دار الفرابي، بيروت ، لبنان ، الطبعة 01 ، 1428هـ / 2007م ، ص 166 – 167 .

السيـــــاق:

01- تعريف السياق:

السياق لغة: من مادة (سَوَقَ)، وقال ابن فارس : « يقال ساق يسوق سوقاً ، و السيقة ما استيق من الدّواب » ([1]).

وقال الراغب الأصفهاني : «سَوْقُ الإبل جلبُها و طردُها ، يقال : سُقته فانساق ...و سُقْتُ المَهر إلى المرأة ، وذلك أنّ مهورهم كانت الإبل ... و السُّوَيْـقُ سُمِّي لانسواقه في الحلق من غير مضغ » ([2]).

و جاء في لسان العرب:« السوق معروف، ساق الإبل وغيرها يسوقها سَوقا و سِياقا، و هو سائق و سوّاق ... و تساوقت الإبل تساوقا ، إذا تتابعت » ([3]).

و من خـــلال هذه الأقـــوال يتبين لنا أنّ مـــادة (سوق) تـــدور في معنـــى التتـــابع والاتصال، وأنّ العرب استعملت هذه المادة و مشتقاتها في ذلك المعنى .

السياق اصطلاحا : يقـــول صاحب كتـــاب البحث الدلالي عند الأصوليين : « قد يشيع المصطلح العلمـــي بين الدارسين إلى درجة الابتذال ، فيتـــوهم البعض أن هذا المصطلح واضح مفهوم ، فإذا ما حاولـــوا تحديد المعنى الذي ظنوا أنهم يفهمونه بدا الأمـــر عسيرا غاية العسرة وغامضا أشد الغموض ، ومن تلك المصطلحات اللغوية الشائعة الاستعمال ، العصيّة على التحديد الدقيق بشكل متفق عليه بين الدّارسين مصطلح الكلمة و مصطلح الجملة ومصطلح السياق »([4]).

إن جميع البحوث المعاصرة التي تناولت السياق بالدراسة تؤكد أنّ علماء التراث لم يتعرضوا لتعريف السياق ، مع أنهم يصرّحون به و يعملون به .

وقد ورد لفظ السياق في استعمالاتهم و تعابيرهم ،فنراهم يقولون: (سياق الكلام) و(سياق النظم) و (اللفظ الواضح فيما سيق له) و (ما أوجبه السياق) ، إلى غير ذلك من الاستعمالات المختلفـــة .

و مصطلح السيـــاق عند المعاصرين أيضا لا يخرج عن معنـــاه اللغوي الذي يعني التتابع و الاتّصال ، فهو – عندهم – إطار عام تنتظم فيه عناصر النّص و وحداته اللغوية ، و هو مقياس

---

[1])- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، معجم مقاييس اللغة ، تح عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، ط 02 ج 03/ ص117.
[2])- أبو القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن، تح محمد سيد كيلاني،دار المعرفة، بيروت، ص : 436.
[3])- أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، ط 01 ،1997 ، ج 03 / ص 369.
[4])- محمد يوسف حبلص ، البحث الدلالي عند الأصوايين ، مكتبة عالم الكتب ، ط 01 ، 1991 ، ص : 27

تتصل بواسطته الجمل فيما بينها و تترابط . فهو فضاء لغوي يرعى العناصر المعرفية التي يقدّمها النص للقارئ.

و نجـــد للسياق تعريفات كثيرة في كُتُب المحدثين ، تصبّ كلّها في معنى واحد . نذكر منها مايلي :

عـــرفه إدريس حمادي بـــأنه :« تلك المعاني التي تفهم من تراكيب الخطاب »([1]). وعرّفه أشرف الكناني في الأدلة الاستئناسية بأنـــه:«الكـــلام المتتابع إثـــره على إثر بعض ، المقصود للمتكلم،و الذي يلزم من فهمه فهم شيء آخر» ([2]).

02 –السياق عند الغربيين:

يرى أصحاب النظريات السياقية – وعلى رأسهم اللغوي فيرث (firth) – أن الطريـــق إلى المعنى ليست برؤية المشار إليه أو وصـــفه أو تعريفه ، و إنما برؤيته من خلال السياق اللغوي الذي ورد فيه، و الموقف الحالي الذي استعمل فيه ؛ وعليه فدراسة المعنى تتطلب تحليلا للسياقات اللغوية و غير اللغوية.

والسيـــاق عندهم هو : « بناء نصيّ كامل من فقرات مترابطة ، في علاقته بأي جـــزء من أجزائـــه ، أو تلك الأجزاء التي تسبق أو تتلو مباشرة فقرة أوكلمة معينة. ودائما ما يكـــون السيـــاق مجموعـــة من وثيق الترابـــط، بحيث يلقي ضوءاً لا على معـــاني الكلمات المفردة فحسب ، بل على معنى و غاية الفقرة بأكملها »([3]).

و يقـــول أحمد مختار : « و معنى الكلمة عند أصحاب النظرية السياقيـــة هو استعمالها في اللغة ، أو الطريقة التي تستعمل بها ، أو الدور الذي تؤديه ... ومعظم الوحدات الدلالية تقع في مجاورة أخرى. وإن معاني هذه الوحدات لا يمكـــن وصفها أو تحديدها إلاّ بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها »([4]) .

---

[1])- إدريس حمادي ، المنهج الأصولي في فقه الخطاب ، المركز الثقافي العربي ، بيرت ، ط01 ، 1998،ص 45.
[2])- أبو قدامة أشرف الكناني ، الأدلة الاستئناسية عند الأصوليين ،دار النفائس ، عمان، الأردن ، ط01 ، 2005 ، ص220.
[3])- إبراهيم فتحي : معجم المصطلحات الأدبية ، التعاضدية العمالية لطباعة و النشر، العدد 01، 1988 ، ص : 201 – 202 .
[4]) أحمد مختار عمر ، علم الدلالة ، عالم الكتب، القاهرة ، ط 05 ، 1998 ، ص 68 – 69 .

03 –أنواع السيـــــــاق:

تعددت أنواع السياق في كتب الباحثين المعاصرين . و من بيـــن هـــذه الأنواع : السياق اللغوي ، و السياق العاطفي ، و سياق الموقف ، و السياق الثقافي ، و السياق التاريخي ، والسياق النصي ،والسياق الجزئي ، وغيرها .

و نظرا لتعدد أنواع السيـــاق عند الباحثين ارتأيت أن أضع تقسيما يلائم بحثي. وذكرت أن للسياق نوعين هما : السياق اللغوي ، و السياق غير اللغوي.

أ– السياق اللغوي:ويسمى المقالي،ويشمل السياق الصوتي، والسياق الصرفي، و السيـــاق النحوي ، و السياق المعجمي الدلالي.

يقول محمد حماسة : « و ثمة ضرب آخر من السياق ، هو السياق اللغوي و هو يعتمد على عناصرلغوية في النص،من ذكر جملة سابقة أو لاحقة، أو عنصر في جملة سابقة أو لاحقة»([1]).

وانطـــلاقا من هذا التعريف يمكن القـــول بأن السياق اللغوي هو النص الذي ترِد فيـــه اللفظة ، وهـــو يعتـــمد في تحديد معنى الكلمة على عناصر لغوية تآلفت فيما بينها لبيان المعنى الوظيفي لهذه الكلمة. فهو يشرف على تغيير دلالة الكلمة تبعا لتغيير يمس التركيب اللغوي . ومن ثمّ تكون العملية داخل اللغة بالنظر إلى الكلمة من خلال مستوياتها المختلفة (الصوتي ، و الصرفي و النحوي ،و المعجمي). فكلمة (حسن) تتغير دلالتها بتغير استعمالها اللغوي ، فهي تعني الإجادة في العمل في قولنا : طبيب حسن ، وتعني لنا الإشادة بالأخلاق في قولنا : رجل حسن ، وتعني لنا الجمال قي قولنا : منظر حسن .فالقرائن اللغوية أو المقالية التي تصحب الوحدة الكلامية تعـــين على تحديد دلالة الوحدة الكلامية ، ومن ثم تحديد دلالة الجملة ([2]).

ب – السياق غير اللغـــوي: ورد هذا النـــوع من السيـــاق عند الباحثين بتسميات مختلفة ، ومن هذه التسميات : سياق الحال ،و سياق المقام.

السياق غير اللغوي يعتمد على القرائن غير المرتبطة بالدليل والمدلول لتحديد مراد المتكلم بحسب مقتضى الحال ، وهذا المعنى هو المعبر عنه بالمعنى المراد من الخطاب أو مقتضى الحال.

ويشتمل السياق غير اللغوي على عناصـــر متعـــددة تتصل بالمخاطب والمخاطب وسائر الملابسات التي تحيط بالخطاب.وهو ويشمل ثلاثة أنواع هي :

---

[1])- محمد حماسة عبد اللطيف، النحو و الدلالة ، دار الشروق ، القاهرة ، ط01 ، 1420هـ/ 2000م ، ص : 116.

[2])- المرجع نفسه ، ص : 117 .

– **السياق العاطفي** : يرتبط هذا السيـــاق بدرجة الانفعال المصاحبة للأداء الفعلي للكلام من حيث ما يقتضيه الكلام من تأكيد أو مبالغة أو اعتـــدال ([1]). فبالرغم من اشتـــراك وحدتين لغويتين فـــي أصل المعنى إلاّ أن دلالتهما تختلف تبعا لاختلاف العواطف و الانفعالات المصاحبة للأداء الكلامي.

جاء في كتاب مباحث في اللسانيات أن ستيفن أولمان (stephen ullman)قال:« السياق وحده هو الذي يوضح لنا ما إذا كـــانت الكلمـــة ينبغي أن تؤخذ على أنها تعبير موضوعي صرف ، أو أنها قصد بها أساسا التعبير عن العواطف و الانفعالات»([2]).

ويمثل ستيفن في هذه المسألة بكلمة (like) الإنجليزية التي تشـــترك مع كلمة (love) في المعنى الأصلي ، و الذي هو الحبّ . إلاّ أن لكل منهما مجالها الخاص بها .

– **سياق الموقف:** يعني ذلك عند أحمد مختار الموقف الخارجي الذي يمكـــن أن تقع فيه الكلمة ([3]). ومعنى ذلك أنه الحيز الذي ينتج فيه مدخل معجمي ما .

فكلمة (عملية) يتغير مدلولها في النظام اللغـــوي بتغير السياق الموقفي الذي استعملت فيه . فإجراء العملية في سياق موقفي تعليمي يعني إجراء عملية حسابية من ضرب أو جمـــع أو طرح. أمّا إجراء عملية في السياق الطبّي فيعني إجراء عملية جراحية . و تعني كلمـــة (عملية) في السياق العسكري خطة عسكرية معينة .وكان اللغويون العرب الأقدمون قد أشاروا كثـــيرا إلى أهمية هذا النوع من السياق في إيضاح معاني الألفاظ.

– **السياق الثقافي** : للسياق الثقافي أهمية كبيرة في الترجمة ، إذ تتطلب مقتضيات الفهم الصحيح و الدّقة العلمية أن ينمّ المترجم بالسياق الثقافي للنص المترجَم لكي ينقل مضمونه إلى اللغة الأخرى بكلمات موازية من حيث الارتباط بالسياق.

و يقتضي السياق الثقافـــي تحديد المحيط الثقافي أو الاجتماعي الذي يمكن أن يستخدم فيه الكلمة .

فكلمة (جذر) مثلاً لهـــا معنى عند المزارع ، و معنى ثان عند اللغوي، ومعنى آخر عند عالم الرياضيات ([4]).

---

[1])- ينظر: أحمد حساني ، مباحث في اللسانيات ، ديوان المطبوعات ، الجزائر، د ط ، ص : 156.
[2])- ينظر : المرجع نفسه ، 156
[3])- ينظر: أحمد مختار عمر ، علم الدلالة ، ص : 71.
[4])- ينظر : المرجع نفسه ، ص: 71.

04 -السياق عند علماء التراث:

لقد اهتدى علماء التراث في وقت مبكر من تاريخ العلوم اللغوية و البلاغية إلى ما يحيـــط بظاهرة الكلام من ظروف و ملابسات ، كالسامع و المقام و ظروف المقال ، وكل ما يقوم بين هذه العناصر من روابط .

و يظهر لنا اهتمام العلماء القدامى بفكرة السياق في أعمال أصحاب المعاجم ، إذ نراهـــم لم يكتفوا بذكر الألفاظ و معانيها، وإنّما ربطوا معاني الألفاظ بالاستعمالات والسياقات المختلفة التي وردت فيها . وتبدو معالم السيـــاق واضحة عند أصحاب كتب المعاني كالكسائي ، والفراء و الأخفش، و الزجاج، والنحاس .

و مما يدل على معرفة علماء التراث – رحمهم الله – بالسيـــاق وتنبههم إليه ، وتقيـــدهم به ما ورد من مصنفات تحدثت عن معاني الحروف،ككتاب معاني الحروف للزجاجي(337 هـــ).

واهتمـــام القدامى بالسيـــاق فكرة أيّدها علمـــاء اللغة المحدثين ، إذ يرون أن المعنى يستفاد من النظر في التركيب عبر السياق ، وليس من النظر إليه منفردا .

و يذكر الخطيب القزويني نصاً تظهر فيه ملامح السياق واضحة ، إذ يقول : « و أما بلاغة الكلام فهي : مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته ، و مقتضى الحال مختلف ؛ فإن مقامات الحال متفاوتة ؛ فمقام التنكير يُباين مقام التعريف ، و مقام الإطلاق يُباين مقام التقييد ، و مقام التقديم يباين مقام التأخيـــر ، و مقام الذكر يباين مقام الحذف ، مقام القصر يباين مقام خلافه ، ومقام الفصل يبـــاين مقام الوصل ، و مقام الإيجاز يبايـــن مقام الإطناب و المساواة ، وكـــذا خطاب الذكي يبـــاين خطاب الغبـــي. و كذا لكل كلمـــة مع صاحبتها مقام ... فمقتضـــى الحال هو الاعتبار المناسب »([1]).

و قولهم : (لكل مقام مقال) عبارة تدلّ على فكرة تعدّ من أفضل ما توصل إليه علم اللغة الحديث في بحثه عن المعنـــى. وقـــد نالت هذه المقولة اهتماما كبيـــرا من البلاغيين في دراستهم للمعنى.

[1])- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق وتنقيح محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، ط 04، 1975، ج 01 / ص 80.

و على الرغم من مراعاة اللغويين و البلاغيين للمقام، أو سياق الحال أكثر من غيره ، فهذا لا يعني أنهم أهملوا السياق اللغوي ،فقد التفتوا إلى السياق اللغوي وأعملوه، ولعل أكبر دليل على اهتمامهم به ما جاء به عبد القاهر الجرجاني (471) في نظرية النظم.

و عبد القاهر الجرجاني شديد التأثر بالجاحظ ، فقد أخذ عنه الكثير من آرائه بدون أن يذكر له اسمه، و قليلا ما كان يشير إليه؛ فكلام عبد القاهر عن البيان يتجلى فيه روح الجاحظ. ورأيُــه في أنّ فضيلة الكلام لنظمه لا للفظه و لا لمعناه ، هو روح كلام الجاحظ([1]).

و المعنى عند عبد القاهر لا يستنبط من الألفاظ منفردة عن بعضها ، وإنمــا من تتابعها على نسق معين، وتعالقها والتئامها ، واللفظ – عنده – لا يكتسب دلالته وقيمته إلا من خلال السياق الذي يــرد فيه.

يقول الجرجاني : « معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلِمِ بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض.والكلم ثلاث:اسم و فعل وحرف،وللتعليق فيما بينها طرق معلومة،وهو لا يعدو عن ثلاثة أقسام : تعلق اسم باسم ، و تعلق اسم بفعل، وتعلق حرف بهما » ([2]).

و يرى عبد القاهــر الجرجــاني أن الــذي أعجــز الــعرب في القــرآن هــو سياق لفــظه، فقال في كتابه دلائل الإعجاز : « أعجزهم مزايا ظهرت لهم في نظمــه، و خصائص صادفــوها في سياق لفظه ، و بدائعُ راعتهم من مبادئ آيهِ و مقــاطعها ، و مجــاري ألفاظها و مواقعها ، و في مضرب كــلّ مثل ، و مساق كلّ خبر ، و صورة كل عظة و تنبيه ، و إعلام وتذكير ، وترغيب و ترهيب ، و مع كل حجة و برهان ، وصفة و تبيان . وبهرهم أنهم تأملــوه سورة سورة ، وعشرا عشرا ، وآية آية ، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ، ولفظة ينكر شانها ، أو يُرَى أن غيرَها أصلح هناك أو أشبه »([3]).

و قوله :(مساق كل خبر) ، و (فلم يجدوا في الجميع أن كلمة ينبو بها مكانها) دليــل على أنّ علماء التراث تنبهوا للسياق اللغوي و أولوه عناية كبيرة ، و أدركوا أهميته في بيان دلالة الألفاظ فضلا عن سياق الحال .

---

[1])- ينظر، الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، ج 01 / ص 44 .

[2])- عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، قرأه و علق عليه محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي القاهرة، رقم الإيداع 11889، 2000، ص:04.

[3])- المصدر نفسه، ص : 39.

وعن سبق العرب إلى معرفة أهمية السياق يقول تمام حسن : « و لم يكن مانيلوفيسكي وهو يصـــوغ مصطلحه الشهير (context of situation) يعلـــم أنه مسبوق إلى مفهوم هذا المصطـــلح بألف سنة أو ما فوقها . إن الذين عرفوا هذا المفهوم قبله سجـــلوه في كتب لهم تحت اصطلاح (المقام) . ولكن كتبهم هذه لم تجد من الدعاية على المستوى العالمي ما وجده اصطلاح مانيلوفيسكي من تلك الدعاية بسبب انتشار نفـــوذ العالم الغربي في كل الاتجاهات ، و براعـــة الدعاية الغربية »([1]).

أ- السياق عند المفسرين :

إن المفسرين قد عرفوا منذ بداية التأليف في القرآن الكريـــم الفرق بين ظاهر القـــرآن و باطنه ، فكان فهمهم لهذا الفرق تفريقا منهم بين المعنى المقالي و المعنى المقامي.

و المعنى المقالي – عندهم – مكوّن من المعنى الوظيفي و المعنى المعجمي ، وهو يشمل القرائن المقالية كلّما وجدت . أمّا المعنـــى المقامـــي فيتكون من ظروف أداء المقـــال ، وهـــي تشتمل على القرائن الحالية([2]).

و الذي يقرأ في الأصول التي التزم بها المفسرون في فهمهم لمعاني القرآن ، و يقابلها بما جاء في النظرية السياقية الحديثة ، تتضح له أصول فكرة المحدثين في التراث العربي الإسلامي . فقـــد اشترطوا في المفسر شروطا لها علاقـــة بالسياق ([3]). وهذا إدراك واضح من المفسريـــن لعناصر السياق و أثرها في استنباط المعاني ، والوصول إلى المعنى الذي أراده القرآن الكريم .

ومعرفة المفســـر لعناصر السياق تقتضي منه معرفة ألفاظ العربية و دلالاتها ، وهي ضرورية له ، و إلاّ فلا يحلّ الإقدام على تفسير كتاب الله تعالى .

وقد نقل الزركشي قولا لمالك بن أنس (179 هـــ) يبيـــّن فيه ذلك، فقال: « لا أوتـــي برجل يفسر كتاب الله غير عالم بلغة العرب إلاّ جعلته نكالا » ([4]).و نقـــل قولاً آخر لمجاهد أنّه قال: « لا يحلّ لأحد يؤمن بالله و اليوم الآخر أن يتكلم في كتـــاب الله إذا لم يكـــن عالما بلغات العرب »([5]).

---

[1])- تمام حسن : اللغة العربية معناها و مبناها ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1994،ص : 372.
[2])- ينظر: المرجع نفسه ، ص: 372 .
[3])- ينظر: بدرالدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، د ط ، ج01/ ص292– 293.
[4])- المصدر نفسه ، ج 01 / ص 292.
[5])- المصدر نفسه ، ج 01 / ص 292.

و يظهر لنا إدراك المفسرين للسياق – أيضا – في إصرارهم علـــى وجوب معرفة علـــوم اللغة ، ومعرفة أسباب النزول و الأحداث و الوقائع الملابسة للنص القرآني.

يقول الزركشي : « التفسير علـــم يعرف به فهم كتاب الله المنـــزل على نبيه محمد صلى الله عليه و سلم ، وبيان معانيه ، و استخراج أحكامه و حكَمه . و استمداد ذلك من علـــم اللغة و النحو و التصريف، وعلم البيان و أصول الفقه و القراءات ، و يحتاج لمعـــرفة أسباب النـــزول و الناسخ و المنسوخ » ([1]).

و قد اتخذ الزمخشري من السيـــاق وسيلة لفهم البيان القرآني وبلاغتـــه, فيقول عند تفسيره لقوله تعـــالى : (ذلك الكتب لا ريب فيه هدى للمتقين) , و قد أصيب بترتيبـــها مفصـــل البـــلاغة , وموجب حسن النظم حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق , وذلـــك لمجيئها متآخية آخذا بعضها بعنق بعض " ([2])

إنّ النص القرآني عند المفسرين وحـــدة متكاملـــة يفسر بعضها بعضا , فالمعنى يفهـــم من السياق أكثر مما يفهم من العناصر والوحدات الصريحة المؤلفة للكلام .

ب– السياق عند الأصوليين :

لقد بحـــث الأصوليون فـــي الظواهر اللغوية و ناقشـــوها , ومصطلح السياق من أهـــمّ المسائل اللغوية المتناولة في بحثهم . ونراهم قد تناولوا ظاهرة السياق ، وتحدثوا عنـــها كثيـــرا في مباحثهم ، لصلتها الوثيقة بعلوم الشريعة . ففهم النصوص الشرعيـــة متوقف على فهم سياق تلك النصوص . و كانوا أسبق من غيرهم في التصريح بفكرة السياق .

ونذكر من بين الأصوليين الشافعي (204 هـــ) الذي صرح بمصطلح السياق، و أشار إلى أهميته في الكشف عـــن معاني القرآن الكريـــم في قوله : « فإنما خاطب الله بكتابه العربَ بلسانها ، على ما تعرِف من معانيها ، و كان ممّا تعرف من معانيها اتّساع لسانها . و أنّ فطرته أن يخاطبَ بالشيء منه عاما ظاهرا يُراد به العام الظاهر ، ويُستغْنَى بأوّل هـــذا منه عن آخره .وعاما ظـــاهرا يراد به العام ويدخله الخـــاص ، فيُسْتدلُّ على هذا ببعض ما خوطب فيه. وعاما ظاهرا

[1])- بدر الدين الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، ج 01 / ص 13 .
[2]) – أبو القاسم الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل, دار الفكر، ط01 ، 1977 ، ج 01 / ص 121 .

يـــراد به الخاص. و ظاهرا يعرف في سياقه أنه يُراد به غير ظاهره. فكل هذا موجود علمُهُ في أوّل الكلام أو وسطه أو آخره »([1]) .

و الإمـــام فخر الدين الرازي مفسِّر أصوليّ، تنبّه هو الآخر إلى فكـــر ة السياق و تقيـــّد بها في تفسيره للقـــرآن الكريم ،وسأحـــاول في هـــذا العمل المتواضع أن أقفَ عند المواضع التي أعمل الرازي فيها السياق ، و إن لم يشر إليه كمصطلح.

[1])- محمد بن إدريس الشافعي : الرسالة ، تح أحمد محمد شاكر ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ص : 51 – 52 .

الفصل الأول

أثر السياق في اختيار الألفاظ

01- أثر السياق في اختيار الكلمة.

02- المشتقات و ملاءمتها للسياق .

03- أثر السياق في اختيار المفرد و الجمع.

04- مجالات استخدام الكلمة القرآنية.

05- أثر السياق القرآني في التطور الدلالي للكلمة.

توطـــــــــئة:

يقول الرازي : «...كما تقدم منّي القول إنّ كل لفظ في القــرآن الكريم فيه فائــدة و إن كنّا لا نعلمها » ([1]).

إنّ موضوع المفردة في القرآن الكريم واسع و متشعب الأطراف ، غير أنّــي آثرت أن أبحث باختصار في اهتمام الرّازي باللفظــة القرآنية من جهة وضعها الملائم لسياقها، و الحكمة في اختيارها،فقد وضعت وضعاً فنيا مقصودا في مكانها المناسب بحيث لا يؤدّي معناها أي كلمة أخرى وُضِعت مكــانها ، وقد ورد هذا كثيرا في تفسيره.

و القصد من هذه الدراسة هو البحث عن معالم السياق في منهجه و طريقته في التفسيــر و مدى إدراكه لقيمة الكلمة القرآنية.

و يقول الرازي في موضع أخر:« كلّ كلمة وردت في القرآن فهي لمعنى، و كــلّ ترتيب وجد فهو لحكمة.و ما ذكر على خلافه لا يكون في درجة ما ورد به القرآن » ([2]).

نرى الرازي في كثير من المواضع يولي عنايــة بالغة باللفظة القرآنيــة، و يتفق على هذا مــع كل علمــاء التفسير، و الذين درسوا النّظم ، و يعتبرون هذا الجانب هــو الأســاس فــي التفسير. ذلــك أن المفسر لا يستطيع الوصول إلــى دلالة الكلمة مالم يُدرك قيمتــها و وظيفتها و عظمتها.

ويحاول معظم علماء التفسير – و الرازي واحد منهم– أن يؤكدوا أن الكلمة تعطــي من المعاني والدلالات بقدر ما أتيح لها من استعمالات متعددة.فالكلمة في رأي معظمهم لها معنى عام ، و معان هامشية ترافق هذا المعنى ، وتسمى ظلال المعنى العام ، و ما يحــرّك هــذه المعاني الهامشية هو السياق.

[1])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ج 28 / ص 264.
[2])- المصدر نفسه ، ج 25 / ص 130.

وهاهو الرازي يكشف عن المعاني الهامشية السياقية التي تبعت المعنى العام في كثير من المواضع . و سنُبَيّن دور السياق في استنباط هذه المعاني من خلال المباحث التالية:

- أثر السياق في اختيار الكلمة .
  - أ – أثر السياق في اختيار الأسماء.
  - ب – أثر السياق في اختيار الأفعال.
  - ج – أثر السياق في اختيار الحروف .
- المشتقات و ملاءمتها للسياق.
- أثر السياق في اختيار الإفراد و الجمع.
- مجالات استخدام اللفظة القرآنية.
- أثر السياق في التطور الدّلالي للكلمة.

01 –أثر السياق في اختيار الكلمة :

لا يختلف اثنان في أنّ القـــرآن الكريم ذروة في البلاغة و الفصاحة ، و أنّ من دلائـــل إعجـــازه الحكمة في انتقائه الألفاظ – سواء كانت اسماً ، أو فعلاً أو حرفاً — و وضعـــها في محلّـــها. و ذلك لما بيـــن الألفاظ من فـــروق دقيقة لا تظهر إلا للبارع المتمرس في اللغة .

و يؤكد الباقلاني (403هـــ) ذلك ،فهو يرى أنّ اختيار اللّفظ و إحلاله في الموقع المناسب في السياق هـــو أساس البلاغة و الإحسان في البيان([1]).

و يرى أحمد بدوي أنّ القرآن الكريم يخـــتار الألفاظ اختيارا دقيقا، فيقول : « يتأنّـــق أسلوب القـــرآن في اختيار ألفاظه، و لِما بينها من فروق دقيقـــة في دلالتـــها ، يستخدم كلاًّ حيث يـــؤدي معناه في دقـــة فائقة ، تكاد بها تؤمن بأن هذا المكان كأنما خلقت له هذه الكلمة »([2]).

و اختيار اللفظ المناسب للسياق في القرآن الكريم ظاهرة شائعة تشمل جميع ألفاظه . فكل كلمة تقع في مكانها المحدد الذي لا يجوز أن تكون فيـــه كلمة أخرى. و لو حدث ذلـــك لاختلّ المعنى.

و لقد أدرك الرازي هذه الفروق الموجودة بين الكلمات التي يُظنُّ أنّ معناها واحد.و ذلك لبراعته و حسّه البلاغي ، و ذوقه الأدبي. و عرف أنّ اختيار الألفاظ في القرآن الكريم لا يكون إلاّ لمعنى أراده الله عز وجلّ لا يدركه إلاّ المتمرّس في اللغة . و تناول الرازي المفردة القرآنيـــة من حيث مادتها و هيئتها و إيحاءاتها ، و درسها من نواح مختلفة . و اهتم ببيان الفروق الموجودة بين الكلمات وصولاً إلى دلالة اللفظ المقصودة و سرّ اختياره.

و بحث الرازي – أيضا – في دور السياق و أثره في اختيار المفردة القرآنية ، من اِســـم و فعل و حرف. و سنذكـــر في ما هو آت اجتهاداته في بيـــان مناســـبة الكلمة القرآنيـــة لسياقها ، وما تحمله من معنى داخل هذا السياق.

---

[1])- ينظر: أبو بكر محمد الباقلاني ، إعجاز القرآن ، تح أحمد صقر ، دار المعارف ، مصر، د ط ، ص :184.

[2])- أحمد أحمد بدوي ، من بلاغة القرآن، نهضة مصر ، ط 05 ، 2008 ، ص 51.

أ – أثر السياق في اختيار الأسماء:

يتفق النّحاة على أنّ الاسم هو ما دلّ على نفسه دلالة مجردة عن الاقتران بأحد الأزمنة ، و هو يفيد الثبوت ([1]) .

أما عن توظيفه في القرآن الكريم فقد كان بشكل بارع و دقيق . وهاهو الرازي يقف عند الاسم في القرآن الكريم ، و يبين براعة الأسلوب القرآني في انتقائه الأسماء المناسبة ، ثم يكشف عن معناه بإيجاد الفرق بينه و بين غيره من الأسماء .

فكلمة (أصحاب) في قوله تعالى:﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ**﴾ ([2])، واستعمالها دون غيرها من أرباب ، و ملاك .كان لنية و معنى مقصود.

ويقول فخر الرازي في هذا الموضع: « الصاحب يكون في الجنس » ([3]). و هذا يدلّ في رأيه أنّ الله سبحانه وتعالى يريد أن يبيّن بأن أولئك الأقوام كالفيَلة والبهائم في عدم فهمهم ، و نقص عقلهم . بل يذهب الرّازي إلى أبعد من ذلك ، فيقول : « فيقال للأدوَنِ إنّه صاحب للأعلى ، و لا يقال للأعلى إنه صاحب للأدنى »([4]).

و معنى ذلك – عند الرّازي – أنّ أولئك الأقوام أقلّ منزلة من الفيل.مدعما رأيه بقوله تعالى:«بل هم أضلّ » ([5]) . و أنّهم كانوا كلّما وَجَّهوا الفيل للكعبة تحوّلَ عنها ، و عصى أمرهم. و هذا دليل على أنّ الفيل كان أحسن منهم حالا.

ويضيف الفخر في تعليله على عدم استعمال كلمة (الربّ) بدلاً من (أصحاب)، ذلك أنّ كلمة (الربّ) في القرآن الكريم تأتي في مقام التربية ، و الشفقة ، وهم لا يتصفون بهاتين الصفتين .

يقول الرازي في تفسيره لقوله تعالى:«...**وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ** ...» ([6]): «...الرّب اسم مدلوله الخاص به الشفقة و الرحمة، و الله اسم مدلوله الهيبة و العظمة.» ([7]).

---

[1])- ينظر : بهاءالدين عبدالله بن عقيل ، شرح ابن عقيل ، ط 02 ، د ت ، ج01 / ص 15.
[2])- الفيل : 01.
[3])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 32 / ص98.
[4])- المصدر نفسه ، ج 32 / ص 98.
[5])- الأعراف : من 179.
[6])- العنكبوت : من 10.
[7])- المصدر نفسه ، ج 25/ ص 39.

فعند العذاب ذكر الدّال على الهيبة و العظمة ، و عند النّصر ذكر الدّال على الرحمة و العاطفة.

ونفس التعليل ذكره في قوله تعالى: ﴿ **وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرّعا وخِيفَةً** ...﴾([1]).

فذكر كلمة (ربّك) و لم يقل : أُذكر إلاهك ولا سائر الأسماء ، و إنّما سمّاه في هذا المقام باسم كونه ربّاً ([2]).و هذا يدل على نهاية الرّحمة و الإحسان. ومن هنا نرى الرازي قد أعْمَل السياق المعجمي الدلالي والذي هو نوع من أنواع السياق اللغوي .

و يلائم الاسم سياقَه في سورة الفاتحة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾([3]) ،حين استعمل لفظة (الحمد) بدلا من غيرها كالشكر مثلا. و قد اتفق علماء التفسير و اللغة كالنحاس ، و الأصفهاني و الرازي وغيرهم على أنّ الحمد هو الشكر إلاّ أنّ الحمد أعمُّ و أشمل.

يقول الفخر : « أمّا الفرق بين الحمد و بين الشكر فهو أنّ الحمد يعمّ ما إذا وصل ذلك الإنعام إليك أو إلى غيرك ، وأما الشكر فهو مختص بالإنعام الواصل إليك»([4]). و هو في هذا الموضع يبحث عن الفروق الموجودة بين الكلمتين ليكشف عن دلالة الكلمة المستعملة وملاءمتها لسياقها. فلا يمكن أن توضَع كلمة أخرى مكان كلمة (الحمد)، لأنّها وحدها التي تفي بالمعنى و تحقق الغرض المنشود.

و يكرّر الفخر هذه الدراسة الدقيقة لأسماء القرآن الكريم في مواضع عدة . و يبرهن من خلالها على بلاغة القرآن الكريم و فصاحته و إعجازه البياني. فنراه ينحو نفس النحو في دلالة كلمة (ردماً) في قوله تعالى:﴿ **قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا** ﴾ ([5]) . فيقول : « الرّدم هو السدّ، يقال ردمت الباب أي: سددته ، وردمْتُ الثوب أي: رقعته لأنه يسدّ الخرق بالرقعة. و الرّدم أكثر من السدّ من قولهم ثوب مردوم أي: وضعت عليه رقاع »([6]) .وفي هذا المقام يحرّك الرازي السياق المعجمي الدلالي ، بالإضافة إلى السياق

[1])- الأعراف : من 205 .
[2])- ينظر : فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 15 / ص 107.
[3])- الفاتحة : 01.
[4])- المصدر نفسه ، ج 01 / ص 219.
[5])- الكهف : 95 .
[6])- المصدر نفسه ، ج 21/ ص 171.

الثقافي، وذلك في أن الشائع في قول العرب هو الرّدم. لذلك جاء القرآن الكريم يرجح من الألفاظ ما هو سائد في لهجات العرب.

و يذكر محمد الصابوني المعنى المعجمي للمفردة فيقول :« الرّدم هو السدّ المنيع. و هو أكبر من السدّ ، لأن الرّدم ما جُعل بعضه على بعض حتى يصبح كالحجاب المنيع»([1]).

و أشار الفخر الرازي إلى العلاقة بين الاسم و السياق في تأدية أحسن الدلالات ، و أبلغ الأساليب . فهو يرى أنّ كلّ كلمة إنّما وضعت لفائدة معينة أرادها الله عز و جلّ، وإن كنا لا نعلمها . و أثناء بحثه عن هذه الفائدة نراه يُعمل السياق في كثير من الحالات و إن لم يصرّح به.

وفي معنى (الإلّ) في قوله تعالى : ﴿ **كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ ([2]) ، أورد الرازي آراء العلماء و اعتمادهم على سياقات مختلفة في البحث عن معنى (الإلّ) . فمنهم من قال أنها اسم من أسماء الله الحسنى ،كالأزهري. و طعن الزجاج في هذا القول ، وقال : لم يُسمع أحد يقول: يا إلّ ،و منهم من قال إنّ (الإلّ) هو العهد إذا صفا من شوائب الغدر ([3]). و يكاد يتفق المفسرون مع الزجاج على أنّ (الإلّ) في هذه الآية يدل على العهد.

اِعتمد الرازي في تفسيره لآيات القرآن الكريم على الفروق الموجودة بين الكلمات ، وعرف حال المخاطب و مناسبة الألفاظ لمرتبة المخاطب . فخطابك للعدوّ ليس هو خطابك للصّديق ، و خطابك للكبير ليس هو خطابك للصغير. و ألفاظ كلامك مع المثقّف ليست هي الألفاظ المستعملة في كلامك مع الأمّيّ.ففي قوله تعالى:﴿ **وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا** ﴾ ([4]) ، نرى أنّ معنى (النازعات غرقا) هو نفس معنى (الناشطات نشطا). إلاّ أنّ في الأوّل شدّة ، و في الثاني رفق .

يقول الرازي : « ... أغرق النازع في القوس إذا بلغ غاية المدى حتى ينتهي إلى النصل...و النشط هو الجذب يقال نشطتُ الدّلو أنشطها و أنشطتها نشطا نزعتها برفق»([5]).

---

[1])- محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، دار القرآن الكريم ، بيروت ، ط 02 ، 1981، ج 02 / ص 204.
[2])- التوبة : 08 .
[3])- ينظر : فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 15 / ص 130-231.
[4])- النازعات : 01 – 02 .
[5])- المصدر نفسه ، ج31 / ص 27.

فلمّا كان الكلام موجه للكافر قال : (و النازعات غرقا) ،أي: تنـــزع الملائكـــة روحَه بشدة. ولمّا كان الكلام موجهاً للمؤمن قـــال : (و الناشطات نشطاً) ، أي: الملائكة تنـــزع روحَه برفق.

و تأسيسا على ما ذكرناه من أمثلة يتبيّن لنا أنّ الإمام الفخر الرازي ذهب إلى أبعد ممّا هو ظاهر في النّص . فأدرك عظمة اللفظة القرآنية. و ملاءمتها لسياقها ، لما بينها من فروق معنوية دقيقة. فنراه في كل موضع ينظر إلى المناسبة التي نزلت فيها الآية ، و ينظر إلى حـــال المخاطب الموجه إليه الكلام.كما ينظر في الفرق بين الكلمات معتمداً مجالات استعمالها .

و عنى الرازي أيضا بالكلمة القرآنية من حيث هيئتـــها و تقلبات حـــروفها باعتبـــار أن هذا الجانب له دور كبير في تحديد دلالة اللفظ المقصودة في القرآن الكريم . وهذا ما يطلق عليه المحدثون اسم : السياق الصرفي ، وهو الآخر نوع من أنواع السياق اللغوي .

و يستدل الـــرازي على معنى الكلمـــة من حروفـــها و تقلباتها في اللغة. ففي قوله تعالى : ﴿ **فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**﴾ ([1])، يقول الرازي: « و الويل ينْبئ عن الشـــدة، و تركيـــب حروف الواو و الياء و اللام لا ينفكّ عن نوع شدّة ، منه لوى إذا دفع ، و لوى يلوي إذا كان قويّاً» ([2]).

و في هذا دليل على أنّ الله سبحانه اختـــار هذه الكلمة في سياق التهديد و الوعيـــد لما تحمله من شدّة في معناها، و لا يمكن لأيّ كلمة أخرى أن تحـــلّ محلّـــها و تؤدّي وظيفتها في هذا السياق.

و نستطيع من طريقته أن نستنبط منهجا في كيفية معـــرفة أدقّ المميزات الخاصة بالكلمة في القرآن الكـــريم. فنراه يذكر أن معنى الكلمتين واحد في اللغة ، و لكن هناك فرق بينهما من حيث ما يدلّ عليه تركيب كل كلمة في تقلباتها المختلفة ، ثم يتتبع استعمالها القرآني.

و هذا الربط بين الألفاظ ذات الأصوات المتماثلة ، و المعاني المتشابهة، نجده عند الزمخشري في الكشاف حيث يقول:« الحمد و المدح أخَوَان» ([3]) .فالتقـــاء هذين اللفظين عنده يكون لاشتراكهما في الحروف من غير ترتيب. و هو ما يسمى بالاشتقاق الكبير.كالذي بين (الجذب) و (الجبذ).

---

[1])- الطور : 11 .
[2])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير، ج 28/ ص 245.
[3])- أبو القاسم الزمخشري ، الكشاف ، ج 01/ ص 46.

ب ــ أثر السياق في اختيار الأفعال:

لقد تقدّم الكلام عــن الاسم في القرآن الكريم ، و سرّ اختيار كل اسم عــن باقي مرادفاته ، ولاحظنا مدى ملائمة الاسم لسياقه في القرآن الكريم ، و مثّلنا في هذا بأمثلة و آراء أوردها الرازي في تفسيره.

و نفس العمل نقوم به في النوع الثاني من الكلمة القرآنية ، و هو (الفعل) ، إذ نحــاول من خلاله أن نكشف عن معالم السياق في التفسير الكبير للرازي ، و الوقــوف عند الآيات التي أعمل فيها السياق للكشف عن معنى الفعل.

يرى علماء التفسير أن اختيار الأفعال في القرآن الكريم تأكيدٌ على أزمنة الأفعال التي هي وظيفتها التي تؤديــها في السياق ، فما يدلّ على الاستمــرار و التجدّد يقــوم به الفعــل المضارع ، و ما يدلّ على الحالة الماضية تقوم به الأفعال الماضية ، و من هنا كان تعريف النّحاة للفعل بأنّه يدلّ على معنى في نفسه مقترن بزمان حصول الحدث.

وسنحاول في هذا العمل عرض بعض الآيات من القرآن الكريم ، و إبداء رأي فخر الدين الرازي في معرفة سرّ اختيار الأفعال فيها، و مدى ملاءمتها للسياق بالإضــافة إلى آراء بعض علماء التفسير و اللغة في هذا الشأن.

يرى الشــافعي في قوله تعالى : ﴿... **فَإِنْ أُحْصِــرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ**...﴾ ([1]) أنّــه لا حصــر إلاّ حصر العدو، أمّا ابن السكيت و الزجــاج وابن قتيبــة و أبو عبيدة و أكثر أهل اللغة ، فيرون أنّ الفعل مختص بالمرض، فيقال أحصره المرض إذا منعه من السفر([2]).

ويرجح الفخــر قول الشافعــي ، فيــرى أنّ الحصــر لا يحمل معنى المرض ، و يؤكد قوله–كعادته – بحجج و براهين متعددة .فيقول : « إنّ معنى قوله (أُحصرتم) ، أي: حبستم

[1])- البقرة : من 196 .
[2])- ينظر :فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 05 / ص 145.

و منعتم ، و الحبس لابد له من حابس ، و المنع لابد له من مانع ،و يمتنع وصف المرض بكونه حابسا و مانعا ،لأن الحبس و المنع فعل، و إضافة الفعل إلى المرض محال عقلا » ([1]).

إنّ ترجيح الفخر الرازي لرأي الشافعي، و قوله بأن الحصر لا يكون إلاّ من العدوّ يكون من باب حمل المعنى على الحقيقة لا على المجاز.و ذلك لأن الأولوية للحقيقة.

لقد ذكر العلماء عدة دلالات للحصر. فمنها الذي لا يولد له ، و منها الضّيق و البخل.

يقول صاحب المفردات : « فقوله تعالى:﴿فإن أحصرتم﴾ فمحصول على الأمرين» ([2]).

ومعنى ذلك أنه محصول على المنع الظاهر، و هو منع العدو، وعلى المنع الباطن ، و هو منع المرض.

و هاهو الرازي ينظر إلى ما جاء بعد الفعل ليفهم معناه ، و يؤكّد أنّ معناه لا يتضح ألاّ داخل السياق ، فينفي دلالة الفعل على المنع الباطن . ذلك لأنّ الله تعالى قال بعدها:﴿... **فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ** ... ﴾ ([3]).

يقول الرازي : « فلو كان المحصر هو المريض أو من يكون المرض داخلا فيه ، لكان هذا عطفا للشيء على نفسه »([4]).

يبدو أن اختيار القرآن للفعل (أُحصر) دون غيره من الأفعال في الآية الكريمة راجع إلى السياق ؛ لأن الفعل –كما رأينا – جامع لكل معاني المنع. وبذلك انتخبه السياق لشمول معناه ، فوضعه موضعه المناسب حيث لا يمكن لفعل آخر أن يحلّ محلّه .

ولا يمكن فهم المعنى من خلال ظاهر النص أو سياق العبارة القرآنية فحسب . بل لابد من الاستعانة بالخبرة اللّغوية ، والاطّلاع على حيثيات الكلام العربي كالشعر ولهجات العرب.

وقد ساعد الرازي اتساعُ معرفته وخبرتُه اللغوية في البحث عن معنى الفعل(يَحِيق) في قوله تعالى : ﴿... **وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ**... ﴾ ([5])، الذي أخذ موضعه المناسب، و كأنما جعل لهذا المعنى ، ولهذا السياق .

[1])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير، ج 05 / ص 147.
[2])- الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القر آن، ص 120-121.
[3])- البقرة : من 196 .
[4])-فخر الدين المصدر السابق ، ج 05 / ص 147.
[5])- فاطر : من 43 .

يقول الرازي في هذه الآية:« إنّها تنبئ عن الإحاطة التي فوق اللّحوق ، و فيه من التحذير ما ليس في قوله، و لا يلحق ، و لا يصل »([1]). و بذلك لا يستطيع أي فعل من الأفعال المرادفة للفعل (يحيق) أن يفي بالغرض الذي قُصِد في القرآن الكريم. فالآيـــة نزلت في سياق الردّ على المشركين الذين أقسموا بالله لئن جاءهم رسول ليتبعونه. فلمّا جـــاءهم كفروا به. و استكبروا و مكروا.

فرد الله عليهم يخبر بأن مكرهم سيعود عليهم، و لم تكن هناك كلمة أخرى تعبر عن هذا المعنى ، و أنهم لن يفلتوا منه أبداً، سوى الفعل(يحيق).

وهنا نجد الفخر الرازي يكشف عن معنى الفعل في القرآن الكريم بإعماله السياق المعجمي الدلالي ليجد الفـــرق بينه و بين غيره من المرادفات. حيث يكون لكل فعـــل موضـــعه الخاص به ، و سيـــاقه المناسب له الذي يُمَكّنه مـــن أن يؤدي دوره فيه على أحسن وجه. فلو انتقل من سياق إلى سياق زالت وظيفته ، و فسُد معناه.

قال تعالى:﴿ **فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ** ﴾ ([2]).

يقول الراغب الأصفهاني: « فراغ إلى أهله ، فراغ عليهم ضربا باليمين أي :مال»([3]).

و قال الزمخشري في الكشاف:« ذهب إليهم في خفية من ضيوفه ، و من أدب المضيف أن يخفـــي أمره ، و أن يبادره بالقرى من غير أن يشعر به الضيف حذرا من أن يكفه»([4]). و نفس المعنى نجده في صفوة التفاسير للصابوني ([5]).

أمّا الرازي فيقول: « الروغـــان يدلّ على السرعة » ([6]). وهذا معنى آخر قـــد استنبطه الرازي للفعل (راغ). والسياق يدلّ على ذلك . فالشيء إذا كان غايـــة في السرعة فإنه يكاد لا يرى . وأن صاحب الدار إذا جـــاءه ضيف فجأة يصبح على عجلة من أمـــره. فعبّر عـــن عجلته و سرعته الفائقة بالاختفاء الذي تؤدي اليه السرعة فيكون بذلك قد انتقل من معنى الفعل إلى ما ينتج عن الفعل. وهو نفسه ما نجده في استعمالاتنا وتعابيرنا العادية، كقـــولنا للرجل إذا كان سريعا نقول عنه (طار)، والطيران من نتائج السرعة، لأن الشـــيء إذا كان سريعا صـــار

[1])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 26 / ص 34.
[2])- الذاريات : 26.
[3])- الراغب الأصفهاني ،المفردات في غريب القرآن ، ص 208.
[4])- أبو القاسم الزمخشري ، الكشاف ، ج 04 / ص 18.
[5])- محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، ج 03 / ص 253.
[6])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 28 / ص 213.

خفيفا. و إذا كان خفيفا صار يطير، و لا يمكث في مكان معين. كأوراق الشجر فإنها تتطاير لخفة وزنها.

و حاول الرازي أيضا الربط بين الأفعال ذات الأصوات المتماثلة و المعاني المتشابهة ، و اهتم بتقلبات الحروف ، و مخارج الأصوات. و ركّز كثيرا على القيمة الجمالية للصوت في الكلمة.

و في هذا العمل نحاول أن نلقي نظرة في مجال دراسة الكلام من الناحية التطبيقية و ذلك بذكر بعض الإشارات و الأصول من تراثنا الثّريّ. و ممّا أجادت به عقول علمائنا.

يقول الرازي في تفسيره لقوله تعالى:﴿ **وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى** ﴾ ([1]):« لمّا كان مخرج القاف فوق مخرج الغين جعل الإقناء لحالة فوق الإغناء » ([2]) . فاختلاف النّغم يُولِّد معنى جديدا ، و الارتفاع في مخرج الصوت يُولِّد ارتفاعاً في المعنى. و البراعة في أسلوب القرآن أنه ارتفع من معنى إلى معنى بارتفاعه من مخرج إلى مخرج.

و نفس الأسلوب نجده في قوله تعالى: ﴿.. .**تَؤُزُّهُمْ أَزًّا** ﴾([3]) ، فالأزّ و الهزّ و الاستفزاز أخوات ، ومعناها التهييج و شدّة الإزعاج ([4]) . و الفخر كان يعرف أهميّة مخارج الأصوات (الحروف) و صفاتها ، و أثرها في تغيير المعنى . لأنّ الكلمة في رأيه لها مادة ، و هي الحروف ، و لها صورة و هي الهيئة التي جاءت بها في التركيب. و الذي يميّز اللغة العربية و يفضّلها عن باقي اللّغات هو أنّ سائر حروفها ظاهرة المقاطع ، بيِّنة المخارج ، لا يشتبه شيء منها بالآخر. و حركاتها ظاهرة جليّة و هي الرفع و النّصب و الجرّ.

أمّا الكلمات الحاصلة بحسب التركيب فيقسمها الرازي إلى ثلاثة أقسام:

1-الكلمة التي حروفها على قسمين : متقاربة المخارج و متباعدة المخرج ، و التي حروفها صلبة و التي حروفها رخوة.

2- الكلمة التي جنس بعض حروفها ألذّ و أطيب في السمع.

3- الكلمة من حيث الوزن و عدد الحروف ، فإمّا أن تكون ثنائية ، أو ثلاثية ،أو رباعية.

---

[1])- النجم :48.
[2]) – فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 29 / ص 22.
[3])- مريم : 83 .
[4])- ينظر: أبو القاسم الزمخشري ، الكشاف ، ج 02 / ص 524 .

و نرى الرازي يفضل الكلمة الثلاثية عن الرّباعية و الثنائية .فالثلاثية لها مبدأ، و وسط و منتهى . وهذا ما يجب أن يحصل في الكلمة، أما الرباعية فهي عنده زائدة، والثنائية ناقصة([1]).

وعرف الرّازي العلاقة بين المنحى الصوتي و بين المعنى اللّغوي للكلمة ، فالصوت في رأيه له أثر كبير في تحديد المعنى . و قد عوّل على هذه العلاقة في مواضع كثيرة في القرآن الكريم.

ولا يمكننا إنكار براعة الرّازي في هذا الجانب من الدراسة و خبرته فيه . فنحن نعلم أنّه لم يترك علما من العلوم التي شاعت في بلاده إلاّ ودرسه . فدَرَس العلوم الدّقيقة، و العلوم الحكيمة. و درس الطّبّ و كتب كتاب : (التّشريح من الرأس إلى الحلق). و من درس كل هذه العلوم لابدّ أن تكون له دراية بمخارج الأصوات.

وهاهو الرّازي يستعين بالسياق النصي في فهم كلمة (دحاها) من قوله تعالى: ﴿ **وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا** ﴾ ([2]) ، فينظر إلى وضعها في السياق ، و يربطها بما بعدها ليستنبط المعنى المراد من توظيفها . فيقول :« لا يكون معنى قوله (دحاها) مجرد البسط ، بل يكون المراد أنه بسطها بسطا مهيأ لنبات الأقوات، وهذا هو الذي يبيّنه بقوله (أخرج منها ماءها ومرعاها»([3]).

وكلمة (دحاها) تحمل معنى البسط عموماً ، إلاّ أنّ مجال استعمالها ليس هو مجال استعمال غيرها من المرادفات . فكثيراً ما استعملت هذه الكلمة في سياق الحديث عن النّعم التي أنعم بها الله على الإنسان .

وذكر صاحب المفردات معناها من خلال استعمالاتها فقال : « دحا المطر الحصى من وجه الأرض ، أي: جرفها »([4]). وجاء في مختار الصّحاح:« ... و (مدحى) النّعامة موضع بيضها ، (وأُدحِيُّها) موضعها الذي تُفَرّخ فيه» ([5]).

أمّا في سياق الحديث عن آيات الله في الخلق ، فينتخب السّياق من الألفاظ الدّالة على البسط ،كلمة (سُطِحت) فيقول تعالى : ﴿ **وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ**﴾ ([6]).

---

[1])- ينظر: فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 27/ ص 96.
[2])- النازعات : 30 .
[3])- المصدر نفسه ، ج 31/ ص 48.
[4])- الراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ، ص 165 .
[5])- محمد بن أبي بكر الرازي ، مختار الصّحاح ، دار مكتبة الهلال، د ط ، ص 200.
[6])- الغاشية : 20 .

يختار السياق من الألفاظ ما يستطيع أن يُؤدّي معنى لا تستطيع باقي المفردات تأديته، فقد يأتي الفعل الدّالّ على الجزء في القرآن الكريم ، ليدلّ على الكلّ.كما في قوله تعالى: ﴿ **قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾([1]) .

يقول الخطيب القزويني:« أي:صلّ، ونحوه:"لا تقم فيه أبدا"، أي: لا تصلّ »([2]). و التعبير عن الكلّ بالجزء ضرب من المجاز ، وهو المجاز المرسل.

ويختار الأسلوب القرآني لفظة(أنبتكم) في سياق تعداد نعم الله سبحانه و تعالى على الإنسان ،فيقول: ﴿ **وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا** ﴾([3]).

يقول سعيد حوى : « إنّ التّعبير عن النشأة من الأرض بالإنبات تعبير عجيب موح » ([4]). و قد تكرّر هذا في القرآن الكريم كثيراً. و هو في هذا السياق يذهب إلى معنى بعيد يفسّره الرّازي بقوله : « ... أنه تعالى أنبت الكلّ من الأرض ، لأنّه تعالى إنّما يخلقنا من النّطف ، و هي متولّدة من الأغذية المتولّدة من النّبات المتولّد من الأرض » ([5]).

واهتم الرازي كثيرا بالبحث عن خبايا الكلمة القرآنية ، فنراه يفسّرها تفسيرا عميقا ينتقل من خلاله من معنى إلى معنى آخر، وصولاً إلى المعنى المراد، و هذا ما رأيناه في الآية السابقة في البحث عن سرّ اختيار الفعل (أنبتكم). فلم نره يمرّ على الفعل إلاّ و عرف سبب اختياره مستعينا في ذلك بخبرته اللغوية و ثقافته الواسعة و إحساسه البلاغي و ذوقه الأدبي.

قال تعالى:﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾([6]).

يبيّن الفخر الفرق بين (ألقى السمع) و(استمع) فيقول:«... الاستماع ينبئ عن طلب زائد ، و أمّا إلقاء السّمع فمعناه أنّ الذكرى حاصلة لمن لا يُمسك سمعَه بل يرسله

[1])- المزمل : 02 .
[2])- الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، ج 02 / ص 399.
[3])- نوح : 17 .
[4])- سعيد حوى : الأساس في التفسير ، دار السلام ، القاهرة ، ط01 ، 1985 ، ج 11 / ص 6162.
[5])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير، ج 30 / ص 140.
[6])- ق : 37 .

إرسالاً ... و هو حاضـــر بباله من القلب » ([1]). و بذلك حَسُن اختيـــار هذا الفعـــل بدلاً من غيره ، لما فيه من دلالة موحية، بليغة ،و معبّرة .

ويُعْمِلُ الرّازي السياق المعجمي الدلالي ليكشف عن الفرق بين الخشية و الخوف عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ**﴾ ([2]) ، حيث يقول : « الخشية و الخـــوف معناهما واحـــد عند أهل اللغة ، لكن بينهما فرق ، و هو أنّ الخشية من عظمة المخشي ...و الخوف خشية من ضعف الخاشي » ([3]). وأعْمَل أيضا السياق الصّرفي لأجل إيجاد ذلك الفرق، فوقف في تفسيره عند تركيب حروف الكلمة و تقاليبها.

فحروف مادة (خ ش ي)تحمل معنى العظمة و الهيبة ، من ذلك قولنـــا للسيد و للرجل الكبير السن شيخا ، و كلاهما مهيبان . و تركيب كلـــمة (خ و ف) يدلّ علـــى الضعف في تقاليبه . فالمخفي فيه ضعف كالخائف.

و ربما يرجع الرازي هذا إلى الاشتقاق الكبير الذي هو تشابه حروف الكلمات من غير ترتيب. و نرى هذا النوع في الربط عند الزمخشري في تفسيره لسورة الفاتحة فيقول: « الحمد و المدح أخوان» ([4]).

ج –أثر السياق في اختيار الحروف:

للفخر نظرة أدبية و تحليل لغويّ في فهم معنى الحرف في القرآن الكريم ، ووظيفته في تبيان الدلالة المقصودة ، وسنطرح من خلال هذه الدراســـة نظرات الرازي ، و محاولاته لفهم المعنى من خلال دراسة هذه الحروف داخل السياق. فكما للفعل و الاسم معان متعددة فإن للحرف أيضا معنى عاما و معاني هامشية ترافق معناه العام ، و يحرّك الرّازي السياق للكشف عـــن تلك المعاني الهامشية المرافقة للمعنى العام.

وهذه بعض الحروف التي وقف عندها الرازي ، وبحث في معنـــاها مـــن خلال توظيفها داخل السياق.

[1])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 28 /ص 183..
[2])- ق : 33 .
[3])- المصدر نفسه ، ج 28/ ص 177.
[4] /- أبو القاسم الزمخشري ، الكشاف ، ج 01/ ص 46.

حروف الجر :

حرف ا للاّم :

يقول الرازي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى** ﴾ ([1]) : « المراد من الآية ثواب الأعمال الصالحة ... و الظاهر أن تبيان الخيرات يدل عليه (اللام) في قوله (للإنسان) ، فإن (اللاّم) لعود المنافع ، و(على) لعود المضار »([2]).

و الحقيقة أن نوع الأعمال لم يكن مفهوما من ظاهر النّص .إلاّ أنّ الرازي بعودته إلى مجالات استخدام (اللام) يكشف عن المعنى المقصود، فاللام تستعمل كثيرا في سياق الحديث عن الخير و النّعم . نحو قولنا : يوم لك، و نعنى بذلك النّصر ، و قولنا : يوم عليك ، ونعني به الهزيمة وكذلك قولنا: (دعا له) و (دعا عليه) ، و قولنا : (شهد له) و (شهد عليه).

وقد فهم الرازي القاعدة ، و أحْسَنَ تطبيقها في العديد من آيات القرآن الكريم ،فنراه يشتق لـ (اللاّم) معنى آخر في قوله تعالى :﴿ **وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ** ﴾ ([3]).

فاقتران "اللام " بـ " سليمان " في هذه الآية ، و اقتران " مع" بـ "داود" في قوله تعالى:﴿ **...وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ** ﴾ ([4]) لم يكن إلاّ لمعنى بعيد فسّره الرّازي بقوله: « فما الفائدة من تخصيص داود عليه السلام بلفظ "مع" ، و سليمان بـ"اللام" . قلنا :يحتمل أنّ الجبل لمّا اشتغل بالتّسبيح حصل له نوع شرف، فما أضيف إليه بلام التمليك . أما الرّيح فلم يصدر عنه إلاّ ما يجري مجرى الخدمة ، فلا جرم أضيف إلى سليمان بلام التمليك » ([5]).

و معنى هذا أن الجبال استحقت الشرف و الاقتران بـ"مع" التي من معانيها المصاحبة ، وصارت أعلى مترلة من الرّيح التي اقترنت بـ"اللام" ، باعتبارها وسيلةً يَمْلكها سليمان عليه السلام.

---

[1])- النجم : 39 .
[2])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 29/ ص 15.
[3])- الأنبياء : 81 .
[4])- الأنبياء : من 79 .
[5])- المصدر نفسه ، ج 22 / ص 201.

الحرف علـــــى :

ذكر اللّغويون أنّ "على" تدل على الاستعلاء ، و التّمَكن. والرازي يؤكد ذلك من خلال تطبيقاته على آيات كثيرة في تفسيره.

قال تعالى: ﴿ ... **أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ...**﴾ ([1]).

إنّ موضع الحرف "على" في هـــذه الآية هو موضعه المناسب الذي لا يكون لغيره ، وهو من موضعه هذا يؤدي معنى بعيداً يليق بقوم أحَبَّهم الله ، و يحبّونه ، و يرفعهم إلى مستواهم.

يقول الرازي : « أنّه تعالى ذكر كلمة "على" حتى تدلّ على علوّ منصبهـــم ، و فضلهم و شرفهم ، فيفيد أن كونهـــم أذلة ليس لكونهم ذليلين في أنفسهم ، بل ذاك التذلّل إنّما كان لأجل أنّهم أرادوا أن يضمّوا إلى علوّ منصبهم فضيلة التواضع » ([2]).

و بالتالي فالحرف"على" في هذا السياق يفرض معناه العام ، و هو الاستعلاء ، و لا يترك مجالا لأيّ معنى آخر من المعاني الهامشية . بل لا يتجرأ أيّ معنى أن يحلّ محـــلّ الاستعلاء . ذلك لأن الموضع ليس موضعه ، و السياق ليس سياقه.

وقد ظهر للرازي معنى الاستعلاء بعد إعماله لسياق المقام (السياق غير اللغوي) و معرفته لحال المخـــاطب ، و المخاطب هنا هم المؤمنـــون. و المؤمنون أعلى درجـــة عنـــد الله تعالى من غيرهم .

و قد ردّ الفخر على الواحدي حين جعل حرف الجر "على" صلـــةً لا معنى له في قوله تعالى:﴿... **وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ** ﴾ ([3]) ، فيقول : «... و ما وقع من تفسيـــره يشبه أنْ لا يكون صلة ، لأن كلمة "على" تفيد الاستعلاء . فالمعنى أنّ القلوب امتلأت من ذلك الرّبط حتى كأنه علا عليها ، و ارتفع فوقها » ([4]).

ويذكر الرازي في مواضع كثيرة معنى الاستعلاء للحرف "على" ، فيذكره أيضا في قوله تعالى:﴿ **أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِـــكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ ([5]) . إلاّ أنّ الـــرازي يسلـــك

[1])- المائدة : من 54 .
[2])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 12/ ص 24.
[3])- الأنفال : من 11.
[4])- المصدر نفسه ، ج 15/ ص 134.
[5])- البقرة : 05 .

في الوصول إلى هذا المعنى طريقاً آخر، وهو الاستعارة ، فيشبِّه حالهم بحال من اعتلى الشـــيء و ركبه ، و بذلك يكون قد تمكن منه ([1]).وهو هنا يتبع الزمخشري ([2]).

الحرف فـــــي :

الأصـــل في معناها الظرفيـــة ، إلاّ أنها تؤدّي معناها في القرآن الكريم بطريقة لا يؤدّيها أيّ حرف آخر . و قد استعان الفخر بالسياق في فهم معانيها في آيات كثيرة.

قال تعالى:﴿ ... **وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى**﴾([3]) .

يقول ابن الجوزي : « " في " بمعنى " على " » ([4])، أي: و لأُصلبنّكم على جـــذوع النّخل. في حين يرى الرازي أنّ " في " لا تخرج في هذه الآية عن معنـــاها الأصلي ، و هو الظرفية. فيقول:« ...فَشبَّهَ تمكُّن المصلوب في الجذع بتمكُّن الشيء الموعى في وعائه.فلذلـــك قال : في جذوع النخل ، و الذي يقال في المشهور ، أن "في" بمعنى "على" ضعيف » ([5]).و هو في هذا التعليل يتبع الزّمخشري ([6]).

نرى الرازي في كثير من المواضع يحمل الحرف على معناه الأصليّ، و لا يكتفي بما يحمله ظاهرُ النّص ، فهو يفتح مجال الفهم للّغة . و يرى أنّ النصوص و ضعت أصلاً لتؤوّل و لم توضع لتُؤخَذ كحقائق حصلت حرفيا([7]).

و هاهو الرازي في موضع آخر يعتمد السياق للكشف عـــن معنى الحرف و عن ملاءمته لسياقه دون غيره.

قال تعالى:﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ ([8]).

في هذه الآية يكشف الرازي عن المعنى البعيد للحرفين "في" و "اللام" . فاقتـــران اللاّم مع الأصناف الأربعة الأولى، إنّما يدلّ على أنّهم يأخذون الصّدقة ، ويتصرفون فيها كيفـــما شاؤوا ، و بذلك وظف الأسلوب القرآني لام التمليك لأنها ملكهم.

---

[1])- ينظر : فخر الدين الرازي ،التفسير الكبير، ج 02 / ص 33.
[2])- يُنظر : أبو القاسم الزمخشري ، الكشلف ، ج 01 / ص 142- 143.
[3])- طه : من 71 .
[4])- أبو الفرج جمال الدين بن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، بيروت، ط 01، 1965، ج 05 /ص 307.
[5])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 22 / ص 87.
[6])- أبو القاسم الزمخشري ، الكشاف ج 02 / ص 546.
[7])- ينظر: عمارة الناصر، اللغة و التأويل، ص 166.
[8])- التوبة 60.

و أمّا اقتران "في" بما تبقّى من الأصناف فدليل على أنّهم يأخذون الصدقة ليضعوها في تخليص رقابهم ، أو قضاء ديونهم ، أو في قضاء ما يحتاجون إليه في الغزو([1]).

أدوات الشرط:

إذا:

يتفق الرازي مع غيره من اللغويين في أن "إذا" تأتي في الشرط المقطوع به ، و " إن" تأتي في الشّرط المشكوك فيه.لكنّهما يتبادلان كثيراً في القرآن الكريم.

ويعترض الرّازي على الزّمخشري بشدة في قوله : « و حقه أن يجيء بـ "إن" لا بـ "إذ ا" » ([2]) ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿...**وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا** ﴾([3]). فيردّ قائلا: « و اعلم أنّ هذا الكلام كأنه طعن في لفظ القرآن ، و هو ضعيف لأنّ كلّ واحد من "إن" و "إذا" حرف شرط. إلا أنّ حرف"إن" لا يستعمل فيما يكون معلوم الوقوع، فلا يقال إن طلعت الشمس أكرمتك، أمّا حرف"إذا" فإنّه يستعمل فيما يكون معلوم الوقوع ، تقول : آتيك إذا طلعت الشمس »([4]).

و استعمل الله تعالى:" إذا" في هذه الآية لأنه كان يعلم بمجئ وقت يبدّل فيه الله أولئك الكفرة بأمثالهم في الخلقة ، و أضدادهم في الطاعة.

و اهتم الرازي بهذين الحرفين اهتماما كثيراً حين يخرجان من معناهما الأصلي. فيرى أنّ " إن " قد تأتي لتدلّ على أنّ الفعل لا يحصل إلاّ نادرًا ،أو لتدلّ على أنّه ينبغي أن لا يحصل إلاّ نادرا . و أشار إلى ذلك في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا** ... ﴾ ([5]) ، فقال : « قوله تعالى (وإن) إشارة إلى ندرة وقوع القتال بين طوائف المسلمين ، فإن قيل فنحن نرى أكثر الاقتتال بين طوائفهم ، نقول قوله تعالى (وإن) إشارة إلى أنّه ينبغي أن لا يقع إلاّ نادرا » ([6]).

---

[1])- ينظر : فخر الدين الرازي، التفسير الكبير ، ج 16/ ص 112.
[2])- أبو القاسم الزمخشري الكشاف ، ج 04/ ص 201.
[3])- الإنسان : من 28 .
[4])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 30 / ص 261.
[5])- الحجرات : من 09 .
[6])- المصدر نفسه ، ج 28/ ص 127.

قد يختار السياق القرآني الحرف ليدل على معناه الأصلي ، أو على غير معناه الأصلي ، ونرى الرازي يحاول الوقوف عند علة اختيار السياق لهذا الحرف ، ثم يجتهد في كثير من الأحيان ليستنبط للحرف معناه الأصلي ببراعة و تأويل ذكيّ.

حروف العطف:

تنبه الفخر في تفسيره لمعاني حروف العطف في القرآن الكريم ، فاعتمد مجالات استعمالها في سياقاتها المختلفة في لهجات العرب و القرآن الكريم، ليستنبط معانيها المقصودة.

قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ** ﴾([1]).

في هذه الآية يرى الفخر أنّ " ثمّ " أتت في هذا السياق لاستبعاد الإتيان بعمل قبيح بعد توالي النعم . فقال: « إنما ذكر لفظة (ثمّ) لأنه تعالى لّما وعد موسى حضور الميقات لإنزال التوراة عليه بحضرة السبعين ، وأظهر في ذلك درجة موسى عليه السلام وفضيلة بني إسرائيل ليكون ذلك تنبيها للحاضرين على علوّ درجتهم و تعريفا للغائبين ، وتكملةً للدين ، كان ذلك من أعظم النعم ، فلمّا أتوا عقيب ذلك بأقبح أنواع الجهل و الكفر ، كان ذلك في محل التعجب ، فهو كمن يقول : إنني أحسنت إليك ، وفعلت كذا وكذا ، ثمّ إنك تقصدني بالسوء و الإيذاء » ([2]). و لا يكون التعجب إلاّ في الأمور المستبعدة. و اتّخاذهم العجلَ فعلٌ يستبعده العقل بعد توالي النّعم.

ومعنى التعجب و الإنكار لـ " ثمّ " ذكره الزمخشري قبله ، و استنبطه الرازي من السياق ، و ذلك بالنظر إلى ما قبل الحرف وما بعده .

ويبحث الرازي في معنى " ثمّ " بالوقوف عند استعمالات العرب لها، فيقول الرازي في تفسيره لقوله تعالى:﴿ **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًاوَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ** ﴾([3]) :« لفظ" ثمّ "ههنا معناه التعجب ، كما تقول لصاحبك : أنزلتُك داري ، و أطعمتك و أسقيتك ، ثمّ أنت تشتمني » ([4]).

---

[1])- البقرة : 51 .
[2])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 03 / ص 75.
[3])- المدثر : 11 – 15 .
[4])- المصدر نفسه ، ج 30 / ص 199.

ومثله أورده عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**﴾([1]). فقال : « الفائـــدة فيه استبعاد أن يعدلـــوا به بعد وضوح آيات قدرته »([2]).

والحقيقة أنّ ذكر معنى الاستبعاد و التعجب وحدهما لا يكفيان ؛ لأنّ التعجب من قبح الفعل يستوجب النّهي ، و التّوبيخ .

و الحقيقة أن دور السياق يظهر بوضوح في الحرف أكثر من الاسم و الفعل ؛ لأنّ الحرف كما عرفه اللغويون هو ما دلّ على معنى في غيره، و ليس له علامة يتميز بها عن غيره([3]). و إنّ إفادة " ثم " لهذه المعاني لا تكون من مفهومها اللّغوي المجـــرد عن السياق ، إنما تفيدها و هي مرتبطة بالعناصر و الوحدات الكلامية التي تحيط بها .

وقد أضاف الرازي معنى آخر لـــ " ثم " ، بحيث أنهـــا لا تراعي الترتيب الزمني في تقديم خبر على خبر ، ومن ذلك تقديم الإخبار عن أمّة محمّد عليه الصلاة و السلام ، على الإخبار عن موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . ثُـــمَّ آتَيْنَا مُوسَـــى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ** ﴾ ([4]).

يقول الرازي في هذا الموضع : « فذُكِرت " ثمّ " لتأخير الخبر عن الخبر ، لا لتأخير الواقعة عن الواقعة »([5]).

وقد نقل الفخر عن الزمخشري معنى آخر لـــ " ثـــمّ " ، وهو بيان عظمة ما يقع بعدها . ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى : ﴿ **فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ، ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ، ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ** ﴾ ([6]).

يقول الرازي وهو يحاول إعمال السياق الجزئي للآية لفهم معنى " ثـــمّ " : « إنه تعـــالى ذكر الطعام بتلك البشاعة و الكراهة ، ثمّ وصف الشّراب بما هو أبشع منـــه ، فكان المقصود من كلمة "ثمّ" بيان أنّ حال المشروب في البشاعة أعظم من حال المأكول»([7]).

---

[1])- الأنعام : 01 .
[2])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ،ج 12 / ص 152.
[3])- مصطفى الغلاييني ، جامع الدروس العربية ، المكتبة العصرية - صيدا- بيروت ، ج 01 / ص 12 .
[4])- الأنعام : 153 – 154 .
[5])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 14/ ص 03.
[6])- الصافات : 66 – 68 .
[7])- فخر الدين الرازي ، المصدر السابق، ج 26/ ص 143.

02 –المشتقّات و ملاءمتها للسياق:

أولى الرازي في تفسيره عناية كبيرة بالمشتقات، وكثيرا ما كان يقارن بين المشتقّات، ويبين دلالة كل منها على المعنى الذي وردت فيه،فكشف عن الفرق بين الفعل المبني للمجهول والفعل المبني للمعلوم ، و الفرق بين صيغة " تفاعَلَ " و بين صيغة " تَفْعِل" ، و بين صيغة " تَفَعَّل".

وسنعرض بعض اجتهادات الرازي ، ودراساته للمشتق من حيث دقة اختياره ، و وضعه الملائم لسياقه.

لقد ركّز الفخر على دور السياق في اختيار المشتقّ الملائم له، فبين دلالة كل صيغة صرفية ، و البيان الحسَن في توظيفها. و علّق على سبب مجيئها معولا على نوع من أنواع السياق اللغوي وهو السياق الصرفي . و من أمثلة ذلك ما يلي :

أ– ملا ءمة الفعل المبني للمجهول للسياق:

قال تعالى:﴿... **يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ** ...﴾ ([1]). في هذه الآية يوضّح الرّازي الفرق بين دلالة الفعل المبني للمجهول " يُحلَّون" و الفعل المبني للمعلوم "يَلبسون" ، فيقول : « فإن قيل ما السبب في أنه تعالى قال في الحليّ (يُحلَّون) على فعل ما لم يُسمّ فاعله، و قال في السندس و الاستبرق (ويَلبسون)، فأضاف اللبس إليهم ؟ قلنا يحتمل أن يكون اللبس إشارة إلى ما استوجبوه بعملهم، و أنْ يكون الحليّ إشارة إلى ما تفضّل الله عليهم ابتداء من زوائد الكرم... » ([2]).

فالرازي هنا يبين براعة الأسلوب القرآني في توظيفه الدقيق لأنواع المشتقّات ، و الحكمة من اختيار كل نوع منها . و أنّ كل حرف زائد في الاشتقاق أو حركة زائدة إنّما تأتي للدّلالة على معنى جديد لم يكن في غياب الحرف أو الحركة الزائدة . و الحركة و الحرف قرينتان سياقيتان يعوّل عليهما الرازي في فهم معنى المفردة القرآنية .

ب ــ ملاءمة صيغتي " تَفْعِل" و" تَفَاعَل " للسياق:

ذهب الرازي إلى تعليل ذكي و بارع في الكشف عن السرّ ، والحكمة من عطف صيغة " تفاعَل " على صيغة " تفْعِل" ، وبيّن ما أفادته الألف في كلمة " تنابزوا " من قوله

[1])- الكهف : 31.
[2])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 21 / ص 122.

تعالى : ﴿... **وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾. ([1]).

يرى الرازي أن اللّمز يكون من جانب واحد ، لأن الملموز – في رأيه – قد لا يجد عيباً يلمِزُ به من لَـــمَزه ، و إنّما يستغرق فترة معينة يبحث فيها عن العيب ، و بذلك يكون اللّمز من طرف واحد فقط. و عبّر الله تعالى عن هذا بصيغة " تَفْعِل " ، و قال : (ولا تَلْمِزوا).

أمّـــا النّبز فلا يعجز كل واحد عن الإتيـــان به . فقد ينبز الفرد بالحمـــار، و الثـــور و غيره...و بالتالي فالنبز يؤدّي إلى التنابز، و عبّر عنه تعالى بصيغة " تَفَاعَل " التي تحمل معـــنى المشاركة في الفعل، و هذا سرّ لطيف كشف عنه الرازي ([2]).

ج – ملاءمة صيغتي " تَفَعَّل " و" فَعَّل" للسياق :

يعمل الرازي بالسياق الصرفي ، ويعول على الشدّة كقرينة سياقية تضيف إلى الكلمة معنى جديدا لم يكن في غيابها ، ويظهر ذلك في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا** ﴾([3]) .

يقول الفخر في بيان دلالـــة هذه الصيغة : « ...أنّ ما كان من باب التفعُّـــل فإنّه يدلّ على شدّة اعتناء ذلك الفاعل بإظهـــار ذلك الفعل. كالتصبُّر و التجلُّد و نحوهما ، فإنهما يفيدان الجدّ في إظهار الصبر و الجلادة ، فكذا ههنا التقبُّل يفيد المبالغة في إظهار القبول » ([4]).

ويوظف الفخر أيضا السيـــاق غير اللغوي ، وهو معرفته لحال المخاطب ليستشفّ معنى زائد أضافته صيغة المبالغة " تفعَّل" ، و هي في هذا السياق أخذت موضعها المناسب ذلـــك لأن شأن مريم العظيم لا يستحق القبـــول فحسب ، بل يوجب المبالغـــة في القبول و التي عبّر عنها بالتقبُّل.

و تكشف الشـــدة عن معنـــى الاعتنـــاء في قولـــه تعالى : ﴿ **وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيـــمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ** ...﴾ ([5]).

---

[1])- الحجرات : من 11.
[2])- ينظر : فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 28/ ص 133.
[3])- آل عمران : من 37.
[4])- المصدر نفسه ، ج 08/ ص 27.
[5])- البقرة : من 132.

لقد وظف الأسلوب القـــرآني في هذا السياق لفظة " وصّى " ، واختارها من باقـــي المشتقات، ليعبّر عن معنى معين. ذلك لأنها أبلغ من الناحية اللّغوية ، كـــونها تدلّ على التكثير و التكرار في الوصيّة ، وهي ملائمة لهذا السياق المتعلق بالدين والملّة.

يقول الرازي في هذا الموضـــع: « قرأ نافع و بن عامـــر" وأوصى" بالألف.و كذا هـــو في مصاحف المدينة والشـــام، والباقون بغير ألف بالتشديد، وكذلك هو في مصاحفهم، والمعنى واحد .إلا أن في "وصّى "دليل مبالغة و تكثير » ([1]).

وفرّق الدكتور فاضل السامرائي بين اللفظتين فيقول : « ...و من ذلك استعمال "وصّى " و" أوصى" ، فكل ما ورد فيه من "وصّى" بالتشديد فهو في الديـــن و الأمور المعنوية ، و كل ما ورد من " أوصى " فهو في الأمور المادية » ([2]).

د– ملاءمة صيغة اسم الفاعل للسياق :

للفخـــر نظرة في دلالة اسم الفاعـــل ، وهو – في رأيـــه – يُذْكَـــر في سياق الحديث على من رسخت فيه الصّفة .و يطبّق ذلك في العديد من الآيات.

قال تعالى:﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا** ...﴾ ([3]).

يقول الرازي:« الابن من شأنه أن يكون جازياً عن والده ، لما عليه من الحقوق ، و الوالد يجزي لما فيه من الشفقة.و ليس بواجب عليه ذلك ، فقال في الوالد (لا يجزي)، و قال في الولد (و لا مولود هو جاز) »([4]).

ويؤكّد الفخـــر هنا قـــوله بأن صيغـــة اسم الفاعـــل لا تأتـــي إلاّ لمن رسخت فيـــه الصفة ، فالفعل – عنده – إذا حصل ممّن لا يكون من شأنه الفعل يعبر عنه "بالفعل". فالملـــك إذا كان يحيك يقال :" إنه يحيك" لأن الحياكة ليست راسخة فيه . و لا هي مهنته ،و إذا كانت الحياكة من الذي امتهنها ، وأصبحت لازمة له ، نقول : " حائك " .

[1])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 04 / ص 72.

[2])- فاضل صالح السامرائي : التعبير القرآني ، دراسات بيانية في الأسلوب القرآني ، دار الفجر للطباعة و النشر العراق ، ط 1، 2008، ص:14.

[3])- لقمان : من 33.

[4])- فخر الدين الرازي ، المصدر السابق ، ج 25 / ص 163 .

و يظهـــر لنا من خلال هذا التفسيـــر أنّ صيغة اسم الفاعـــل أفادت معنـــى الدّوام و الاستمرار، و هو مختلف عن معنى الاستمرار الذي نجده في الفعل المضارع.لأن الفعل المضارع يعني ثبوت التجدد.

ويوضح الرازي هذا الفرق في تفسيره لقوله تعالى:﴿**أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ،و تَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ، وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ** ﴾ ([1]).

جاء في التفسير الكبير أنه قال:«... وقوله تعالى (وأنتم سامدون) ،أي: غافلون ، و ذُكِر باسم الفاعـــل ، لأن الغفلة دائمـــة ، و أما الضـــحك و العجب فهمـــا أمران يتجددان ويعدمـــان »([2]). و هو معنى جديد استنبطه الرازي من بنية الكلمة الصرفية داخل السياق.

وهذا التفسير لا نجده عند الزمخشري الذي كثيرا ما اتفق معه الرازي . فمعنى "سامدون" عند الزمخشري هو اللّهو و اللّعب أو الغناء ([3])، و هذه المعانـــي كلّـــها تتجدّد ، و تعدم على خلاف الغفلة . و أضاف القرطبي لهذا اللفظ معنى الإعراض ([4]).

و قد أشار الفخر– أيضا – إلى ذلك في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ** ﴾([5]).

إنّ صيغة اسم الفاعل " المشركين " وظفت لتدلّ على أنّ صفة الشرك راسخة فيهم، لأنهم وُلدوا على عبادة الأوثان ، و إنكار الحشر و القيامة. أمّا الفعل الماضي " كفروا " فيدلّ على أنّ أهل الكتاب ما كانوا كافرين في أول الأمر ؛ لأنهم صدّقـــوا بالتوراة و الإنجيل ، و أقَرُّوا بمبعث عيسى عليه السلام . و لكنّهم كفروا لمّا بُعِث محمد صلى الله عليـــه و سلم رسولا. لأجل ذلك كـــان التعبير عن المشركين بصيغـــة اسم الفاعـــل أبلغ من التعبيـــر عنهم بصيغة أخرى من المشتقات ([6]).

و إضـــافة إلى هذا، فإنّ المشركيـــن كانوا ينكرون الصانع و النبـــوة، و ينكـــرون يوم القيامة. أمّا أهل الكتاب فكانوا منكرين للنبوة فقط ([7]).

---

[1])- النجم : 59- 61.
[2])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 29 / ص 27 .
[3])- ينظر: أبو القاسم الزمخشري ، الكشاف ، ج 04 / ص 35 .
[4])- ينظر: أبو عبد الله محمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط01، 1988، ج 17 / ص 35.
[5])- البينة : 06.
[6])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 32 / ص 49.
[7])- ينظر: المصدر نفسه ، ج 32/ ص 49-50.

هـ – ملاءمة الفعل الماضي للسياق :

كثيرا ما أشار الرازي إلى الفعل الماضي ، و ملاءمته لسياقه ، وحاول أن يُحرّك قرينة السياق ليستكشف المعاني التي يحملها الفعل الماضي. و من بين المعاني التي أوردها الرازي للفعل الماضي.

دلالته على بعد الزمن :

يستنبط الفخر هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ ... **فَرِيقًا كَذَّبُوا وَ فَرِيقًا يَقْتُلُونَ** ﴾ ([1])، فيقول:« ...فذكر التكذيب بلفظ الماضي هنا إشارة إلى معاملتهم مع موسى عليه السلام ،لأنه انقضى عن ذلك الزمان أدوار كثيرة، و ذكر القتل بلفظ المضارع إشارة إلى معاملتهم مع زكريا ويحي وعيسى عليهم السلام،لكون ذلك الزمان قريبا، فكان كالحاضر»([2]).

و نفهم من قوله : أنّ الفعل الماضي يمكنه أن يحدد من هو أبعد زمنا من الحدثين الماضيين . فكل من تكذيب موسى عليه السلام و قتال زكريا و يحي و عيسى عليهم السلام حدثَ في الماضي . و إنّما جاءت صيغة الماضي لتبين أيهما أبعد زمنا.

و في الحقيقة أن القارئ لهذه الآية لا يلتفت إلى الفعل الماضي بقدر التفاته إلى الفعل المضارع ، ذلك أنّ الفعل " كذّبوا " دلّ على زمنه الماضي ، أمّا الفعل " يقتلون " فلم يدلّ على زمنه المضارع . و الباحث إنّما يبحث في علة مجيء صيغة المضارع لا في علة مجيء صيغة الماضي. و هذا ما وجدناه عند الزمخشري حيث أنه لم يعلّل مجيء الفعل الماضي إنّما علّل مجيء الفعل المضارع ، فقال : « جيء "يقتلون " على حكاية الحالة الماضية استفظاعا للقتل و استحضارا لتلك الحال الشنيعة للتعجب منها » ([3]).

دلالته على الاستمرار:

أورد الرازي معنى الاستمرار للفعل الماضي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾ ([4])، حيث رأى أن صيغة المضارع " يولج " دلّت على التجدد، لأن إيلاج الليل في النّهار، و إيلاج النهار في الليل أمر يتجدد كل يوم. و صيغة الماضي "سخّر" تدل على

[1])- المائدة : من 70.
[2])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 12 / ص 55 .
[3])- أبو القاسم الزمخشري ، الكشاف ، ج 01/ ص 633 .
[4])- لقمان : 29.

الاستمرار، لأن تسخير الشمس و القمر أمر مستمر ([1]). فالله سخرهما في الماضي البعيد،ثم بقي تسخيرهما مستمرا و لم ينقطع. و من ذلك قولنا : خلق الله الإنسان ، فنحن لا نقصد الماضي فقط. لأن الله تعالى خلق الإنسان في الماضي و في الحاضر، و يخلقه في المستقبل.

دلالة الماضي على المستقبل القريب:

تتبع الفخر الرازي المواضع التي تأتي فيها الأفعال الماضية دالةً على أحداث تقع في المستقبل،واشتغل بالسياق ليبين أسرار هذا العدول، وتنوُّع أغراضه على حسب السياق الذي وردت فيه ، ثم خلص إلى أنّ الماضي قد يأتي ليدلّ على قرب وقوع الحدث، ومن ذلك ما ورد في تفسير لقوله تعالى : ﴿ **إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ...**﴾([2]).

ذكر القرطبي في هذه الآية : « هذا من صفة يوم القيامة ،كأنه قال :(اُذكر يوم يجمع الله الرسل ، و إذْ يقول الله لعيسى كذا » ([3]).

و يؤكد الرازي قول القرطبي على أنّ الفعل الماضي في هذه الآية دالٌ على المستقبل، ويضيف أنّه مستقبل قريب ، فقال:« خرج قوله (إذ قال الله) على لفظ الماضي دون المستقبل ، وفيه وجوه: الأول: الدلالة على قرب يوم القيامة حتى كأنها قد قامت ووقعت، وكلّ آت قريب ، ويقال : الجيش قد أتى ، إذا قرُب إتيانهم » ([4]) . و المعنى نفسه أورده الصابوني في كتابه (صفوة التفاسير) إذ قال:« وذُكر بلفظ الماضي "إذ قال" تقريبا للقيامة ، لأنّ ما هو آت قريب» ([5]).

دلالة الماضي على أنّ الشيء لازم الحصول في المستقبل:

عبّر الرازي عن هذا المعنى في كثير من الآيات ، و من ذلك قوله تعالى : ﴿ **أَتَى أَمْرُ اللَّهِ** ﴾([6])، فرأى أن الفعل الماضي " أتى " جاء لبيان أن أمر الله حاصل لا محالة ([7]) . و نفس المعنى أورده القرطبي حيث قال: « (أتى) بمعنى يأتي، فهو كقولك: إنْ أكرمتني أكرمتُك، وقد تقدّم أنّ أخبار الله تعالى في الماضي و المستقبل سواء ؛ لأنه آت لا محالة » ([8]).

---

[1])- ينظر: فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 25/ ص 160.
[2])- المائدة : من 110.
[3])- أبو عبد الله محمد القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج 06 / ص 233.
[4])- فخر الدين الرازي ، المصدر السابق ، ج 12 / ص 124.
[5])- محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، ج : 01 / ص : 372.
[6])- النحل : من01.
[7])- ينظر: فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 12/ ص 124 .
[8])- أبو عبد الله محمد القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج 10 / ص 44 .

و تأسيسا على ما سبق ذكره يتبين لنا أنّ الرازي اهتم بدلالة المشتقات، واشتغل بالسياق الصرفي، و الصوتي ،و تتبَّع مختلف الصيغ الصرفيـــة الواردة في القرآن الكريـــم ،وعالجها و هي داخل السياق محاولاً معرفة السرّ من توظيفها ، وما أفادته كل حركة أو حرف أضيف للكلمة أو نقص منها. معتمدا في عمله على إبراز الفرق بين كل صيغة و أخرى . كما لا يمكننا إنكار أن إعمال السياق النصّي و السياق غير اللغوي كان له الدور الأكبر في الكشف عـــن معـــاني المشتقات. لأن انتقاء الصيغة الصرفية من بين غيرها من الصيغ راجـــع إلى المقام و معرفة حال المخاطب .

03 – أثر السياق في اختيار المفرد و الجمع :

إنّ الدارس لألفاظ القرآن الكريم من حيث مجيئها على صيغة الإفراد أو الجمع ، يرى أن كل لفظ منها وضع في موضعه المناسب الذي يقتضيه السياق . فالبيان القرآني بيان محكم و متماسك ، وقد أدرك الرازي هذا التماسك فنظر إلى معطيات السياق القرآني بحس دقيق ليكشف عن سرّ إفراد الكلمة ، و سرّ جمعها في كثير من الآيات القرآنية.

إشتغل الرازي بالسياق و هو يكشف عن سرّ إفراد كلمة " عذابي " و سرّ جمع كلمة " نذر" في قوله تعالى:﴿ **فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ** ﴾([1])، فرأى أنّ الجمع في قوله:(نُذُر) يشير إلى تعدد رحماته ، لأن الإنذار شفقة و رحمة، وقد تعددت الإنذارات و تواترت، فلمّا لم تنفع وقع العذاب دفعة واحدة ، و عبر عنه بالمفرد ([2]).

و لم نجد المفسرين قد اهتموا بسرّ الجمع والإفراد في هذه الآية . فلا الزّمخشري ذكر هذا المعنى، ولا القرطبي ولا سيد قطب.ولذلك فالرازي قد تفرّد بذكره لهذا السرّ في هذا الموضع.

وقد تكون صيغة المفرد الدّالة على الشّمول أكثر مناسبة للسياق من صيغة الجمع، فقد عبر الله تعالى على النعمة في موضع آخر بالمفرد. فقال: ﴿ **وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾([3]).

لقد عبّر الله سبحانه و تعالى في هذه الآية الكريمة عن النّعم بصيغة المفرد في مقام الكثرة ، و ذكر الرازي أن المقصود في هذه الآية ليس التأمل في عدد نعم الله، بل المقصود التأمل في جنس نعم الله لأن هذا الجنس جنس لا يقدر غير الله عليه، فمن الذي يقدر على إعطاء نعمة الحياة والصحة والعقل والهداية و الصّون عن الآفات و الإيصال إلى جميع الخيرات في الدنيا والآخرة؟ ([4]).

والتأمّل لكي يكون دقيقا يجب أن تؤخذ النّعم منفردة فيُتأمّل في كل نعمة على حدة، ولو أخذنا النِّعم مجموعةً و تأمّلنا فيها ما استطعنا أن نكشف عن سرّ عظمة هذه النّعم.

---

[1])- القمر : 21.
[2])- ينظر: فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 29 /ص 48.
[3])- المائدة :07.
[4])- ينظر : المصدر نفسه ، ج 11 / ص 178.

و عبّر سبحانه وتعالى في مقام آخر عن النعمة بجمع القلّة، فقال :﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّـهِ فَأَذَاقَـهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُـوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾([1]).

يرى الرازي أن المقصود في إيراد جمع القلة هو التنبيه بالأدنى على الأعلى ، لأنّ أهل تلك القرية كفروا بأنواع قليلة من النعم فعذّبهم الله . ومعنى هذا أنّ الله لّما أوجب العـذاب عنـد كفرانهم بأنواع قليلة من النِّعم،كـان دليلا على أنّ العذاب يكون واجباً و شديدا عند الكفران بالنِّعم الكثيرة([2]).

إنّ للقرآن معان مقصودة ، و صور ملحوظة في تنوع الكلمة الواحدة من حيث الإفراد و الجمع . و عمل الرازي في هذه الظاهرة مشتغلا بالسياق – و إن لم يصرّح به كمصطلح – للوصول إلى ما قصده القرآن من وراء هذا التوظيف الدّقيق، فأبرز الفرق بين الرّيح" بالمفـرد و" الرّياح " بالجمع في الآيتين الآتيتين.

قال تعالى :﴿ **وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ...**﴾([3]).

وقال أيضا : ﴿**وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ**﴾ ([4]).

أبرز الرازي الفرق الكـامن بين (الرّياح) في الآيـة الأولى، و (الرّيح) في الآيـة الثانيـة، و مدى ملاءمة كل من الكلمتين للسياق، فالرياح في الآية الأولى جاءت بصيغة الجمع لتشير إلى رحمته عز و جلّ، و قوله (مبشّرات) قرينة لفظية من السياق، يستعـين بها الرازي لفهم دلالة الجمع في هذا الموضع ، وهي تنبئ على أن هذه الرياح تبشر بالمطر النافع ([5]).

أمّـا (الريح) في الآيـة الثانية فجاءت بصيغة المفرد في مقام ذكر العذاب، و في قوله تعالى : (العقيم) دلالة على أنّها ليست من اللّواقح، بل كانت تكسر ، وتقطع ([6]).

و وظف الفخر سياق الحديث الشريف المرافق للقرآن الكريم في فهم معانيه ، فقوله عليه الصلاة و السلام إذا هبّت الريح: « اللّهم اجعلها رياحاً و لا تجعلها ريحاً » دليل على أنّ الخير في الرّياح وليس في الرّيح([7]).

---

[1])- النحل : 112.
[2])- ينظر: فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 20/ص 128.
[3])- الرّوم : من 46.
[4])- الذاريات : 41.
[5])- ينظر: المصدر نفسه، ج 25 / ص 131.
[6])- ينظر: المصدر نفسه، ج 28 / ص 222.
[7])- ينظر: المصدر نفسه، ج 04 / ص 202 .

و لم ينفرد الرازي في إبرازه لهذا الفرق ، بل لاحظنا معظم المفسرين قد التفتوا إليه و أبدوا فيه آراءهم.

فقد أدرك الزمخشري الفرق بين (الرّياح) و (الرّيح) ([1]) . وذكر القرطبي معنى الريح فقال:« هي التي لا تلقح سحابا ولا شجرا، ولا رحمة فيها ولا بركة ولا منفعة » ([2]). وأضاف سيّد قطب معنى جديدا للريح لا يخـــرج عن دائرة العذاب ، فقال : « الريح قوة من قوى هذا الكون ، و جند من جند الله ، وما يعلم جنود ربّك إلاّ هو. يرسلـــها ـــ في إطـــار مشيئتـــه وناموسه ـــ في صورة ما من صورها، في الوقت المقدر،على من يريد،بالهلاك و الدّمار...»([3]).

ونرى أن الرّياح غالبا ما جاءت في سياق الحديث عن النّعم و تعدادها، ومن ذلك قولـــه تعالى:﴿... **وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾([4]).

ويقف الـــرازي عند كل صيغة جمـــع، وكل صيغة إفـــراد، ليفتّش عـــن المعنى المقصود من توظيفها . فهاهو يكشف عن معنى جمع القلة في قوله تعالى: ﴿... **فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ ([5]).

أورد الرازي أنّ جمع القلة (الثّمرات) في هذه الآية يشير إلى أنّ ثمار الدّنيا مهما كثرت و تنوعت ، فإنّها قليلة قياسا على ثمار الآخرة، فجمْعُ القلّـــة هنا يدلّ على تقليـــل أمر الدنيا و تعظيم أمرِ الآخرة ([6]).

وقد يأتي الجمع و يراد به الواحد لتعظيمه و بيان منزلته ، كما في قوله تعالى : ﴿ **وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...**﴾([7]).

يـــرى المفسرون أن هذه الآية نزلت في سيدنا أبي بكر، و أنّه يعني في قوله تعالى: (أولوا الفضل) أبا بكر. و فضَّل السياق صيغة الجمع على صيغة المفرد، ليشير إلى عظمة شأن أبي بكر وعلوّ منزلته، فقد كان رضي عنه أفضل الناس بعد سول الله صلى الله عليه وسلم.

و يقول الرازي في تفسيره لهذه الآية :« و اعلم أنّ الله تعالى وصف أبا بكر في هذه الآية بصفات عجيبة دالّة على عُلوّ شأنه في الدين » ([1]).

---

[1])- ينظر: أبو القاسم الزمخشري ،الكشاف، ج 03 / ص 225.
[2])- أبو عبد الله محمد القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج 17 / ص 34 .
[3])- سيّد قطب ، في ظلال القرآن ، دار الشروق ، بيروت، لبنان، ط 13، 1987، المجلد السادس ، ج 27/ ص 3384.
[4])- البقرة : من 164.
[5])- البقرة : من 22.
[6])- ينظر:فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 02 / ص 111.
[7])- النور : من 22.

و يقيس الفخر هذا التعظيم لأبي بكر بتعظيم الله في نفسه في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ** ﴾ ([2])، و قوله:﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ ([3]).

و مما يلاحظ في تفسير الرازي أنّه إذا استنبط قاعدة أو معنى طبّقه على جميع الآيات التي تحتوي على نفس الظاهرة .فها هو يستنبط من السياق معنى التعظيم لفرعون. وذلك في قوله تعالى : ﴿**فَمَا آَمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ** ﴾ ([4]) ، حيث قال : « الأول : أنه قد يُعبّر عن الواحد بلفظ الجمع ، والمراد التعظيم »([5]) .

إلا أنّ هذا التعظيم يخالف تعظيم الله لأبي بكر . ذلك أن هذا التعظيم لم يكن إلا لموافقة ما جرت عليه العادة، من تعظيم الملوك.و لما كان عليه فرعون من تعظيمه لنفسه و لملئه.

و ذكر القرطبي هذا المعنى فقال : « أن فرعون لمّا كان جبارا أُخبر عنه بفعل الجمع »([6]) .و لم يذكره الزمخشري في الكشاف.

و كشف الفخر عن سرّ انتخاب السياق للمصدر المفرد بين الصيغ الجمع من الأسماء في قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ**﴾([7]) .

يرى الرازي أن السّمع جاء بهذه الصيغة لحكمة ، وهي كون السمع قوة واحدة ولها فعلٌ واحد. فلا يستطيع الإنسان أن يضبط سمعه في جهة من الجهات.و لو حاول ذلك بتركيز ، لأنّ الصّوت يصل إلى الأذن. من كل جهة. و لا قدرة للإنسان في اختيار جهة الصوت.

أمّا البصر ، فيستطيع الإنسان أن يتحكم فيه. فيحرّك بصره إلى جانب معين يريد رؤيته، و يحوِّل بصره عن جانب آخر لا يريد رؤيته. ونفس التعليل أورده الرازي في الأفئدة ([8]). و هذا تعليل علميّ انفرد به الرازي عن باقي المفسرين.

---

[1])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 23 / ص 187.
[2])- الكوثر 01.
[3])- الحجر : 09.
[4])- يونس : 83.
[5])- فخر الدين الرازي : التفسير الكبير ، ج 17 / ص 145.
[6])- أبو عبدالله محمد القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن، ج 08 / ص 236.
[7])- السجدة : 09.
[8])- ينظر: فخر الدين الرازي ، المصدر السابق ، ج 25 / ص 174 - 175 .

ويواصل الرازي اهتمامه بصيَغ الإفراد و الجمع ، فكما ذكر السرّ في إفراد المصدر، ذكر السرّ في جمعه كذلك.ومن ذلك ما أورده في تفسيره لقوله تعالى : ﴿... **وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا** ﴾ ([1])، حيث قال: « فقوله :(الظّنونا) أفاد أنّ فيهم من أخطأ الظنّ"»([2]).

ويعني الرازي بقوله أنّه لو قال : (تظنون ظنا) جاز أن يكونوا مصيبين لأن الظنّ واحد في البداية. فإذا ظهر الحقّ ووافق الظنّ ، فإن الجميع يصيب . أمّا إذا اختلفت الظنون، و ظهر الحق فقد يكون الكلّ مخطئا إذا لم يكن الحق ما ظنّوه. و قد يكون بعضهم مصيبين، و يستحيل أن يصيب الكلّ.

إن ظاهرة انتخاب المفرد و الجمع المناسبين للسياق في القرآن الكريم ظاهرة شائعة تشمل كل مفرد و جمع. و للقرآن الكريم سمة معجزة في انتقاء اللفظ المفرد أو الجمع، فهو يراعي وضع الكلام وفقا لما يتطلبه مقام سياق الكلام و هدفه. وقد لاحظنا الرازي يتتبع هذه التوظيفات بحس لغوي و ملاحظة بليغة. ويكشف في كل مرة عن معنى جديد يقصده هذا التوظيف الدقيق .

و التفت أيضا إلى ما لا يعقل جمعه جمعا مذكرا سالما ، وذلك في قوله تعالى:﴿ **أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ** ﴾ ([3]).

قال الفخر:« ...وهو أنّ الجمع بالواو و النّون في غير من يعقل كيف يجوز؟ فنقول لما اعتقد عابدوها أنها تعقِل و تميّز ، ورد هذا اللفظ بناء على ما يعتقدونه و يتصوّرونه، و نظيره قوله تعالى:﴿**كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾،وقوله:﴿...**وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**﴾» ([4]).

و قد ذكر القرطبي هذا المعنى، و هو أنّ الجمع جاء بناء على اعتقادهم بأن الأصنام تضرّ وتنفع ، فأجريت مجرى الناس ([5]).

و التعليل في هذه الآية ليس في سرّ الجمع فحسب ، و إنّما في سرّ جمع ما لا يُعقل جمعه جمعا مذكرا سالما .

---

[1])- الأحزاب : من 10.
[2])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 25/ ص 199.
[3])- الأعراف : 191.
[4])- المصدر نفسه ، ج 15 / ص 90.
[5])- ينظر: أبو عبد الله محمد القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج 07/ ص 216- 217.

وفي آخر هذا المبحث نذكر أن الرازي كان يساوي في قليل من الأحيان بين مجيء الكلمة مفردة وبين مجيئها جمعا ، ولا يرى فرقا بينهما . وفي تفسيره لقـــوله تعالى : ﴿...**إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا**﴾ ([1]) يقول :« و إنما قال (عدوّا) و لم يقل (أعداءً) , لأنّ العدوّ يستوي فيه الواحد و الجمع» ([2]).

[1])- النساء : من 101 .
[2])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 11 / ص 23.

04 – مجالات استخدام اللفظة القرآنية:

رأينـــا أن الـــرازي في تفسيره للكلمة القرآنية يعتمد كثيرا على مجالات استخدام .فكان يعود دائما إلى مجال استعمالها، سواء في القرآن الكريم، أو في لهجات العرب، أو في الشعر، لفهم معناها ، ومعرفة المقصود من توظيفها. فقد وقف عند بعض ألفاظ القرآن الكريم، و بيَّنَ طريقة جريانها في معانيها. وهاهي بعض الكلمات التي حدد الرازي مجال استعمالها لفهم معناها.

الخوض : في تحديد مجالات المفردة القرآنية يذكر الرازي أن كلمة (الخوض) في القرآن الكريم ، لا تستخدم في إلاّ في الاندفـــاع في الأباطيل . وقد وصل إلى هذا المعنى بعد تفسيره لكلّ الآيات التي تشتمل على كلمة (الخوض)، و المقارنة بين معانيها.

يقول في قوله تعـــالى:﴿ **الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ** ﴾ ([1]) : « ... والخوض نفسه خصّ في استعمال القرآن بالاندفاع في الأباطيل، ولهذا قال تعالى: (وخضتم كالذي خاضوا)، وقـــال تعالى : (وكنا نخوض مع الخائضين) » ([2]) . و جـــاء في المفـــردات للأصفهاني أنّ الخوض هو: « هو الشروع في الماء و المرور فيه. و يستعار في الأمور.و أكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يُذمُّ الشروع فيه »([3]).

و نلمس في تعريف الأصفهاني للخوض شيئا في المغامرة. لأن الـــذي يخـــوض في الماء و يتوسطه قد يغامر بنفسه ، و يؤدي بهـــا إلى الهلاك .حالـــه حال الذي خاض في آيات الله و غامر بنفسه و أدّى بها إلى دخول جهنم.

و الحقيـــقة أنّ معظم كلمـــات الخوض جاءت في القـــرآن لتدلّ علـــى الاندفـــاع في الأباطيل، وما جاء فيه قوله تعالى: ﴿ **وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ** ... ﴾ ([4]) ، إنّـــما جاء على سبيل المشاكلـــة. و المشاكلـــة: « أن تذكر الشـــيء بلفظ غيره لوقوعـــه معه » ([5]) ، و نظيـــره قوله تعالى:﴿... **تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ** ﴾([6]).

---

[1])- الطور : 12 .
[2])- فخر الدين الرازي التفسير الكبير ، ج 28 / ص 245.
[3])-الراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن، ص 161.
[4])- النساء : من 140.
[5])- بدر الدين بن مالك: المصباح في المعاني والبيان والبديع، تح د.حسني عبد الجليل يوسف، مكتبة الآداب ومطبعتها، ط01، 1989، ص 196.
[6])- المائدة : من 116.

الخطب: يرى الرازي أن كلمة الخطب لا تُذكر إلاّ في ما عظُم شأنه من المعاني،وفي قوله تعالى : ﴿ **قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ**﴾ ([1]) ، يبيّن الفخـــر ما تفيده كلمة (الخطب) دون غيرها من الألفاظ، فيقول : « ...وذلك من حيث أنّ الألفـــاظ المفردة التي يقرب منها الشغل، و الأمر، و الفعل و أمثالها . وكل ذلك لا يدل على عظم الأمر، و أمّا الخطب هو الأمر العظيم»([2]). وسياق تعظيم المرسلين اختار لفظة (الخطب) دون غيرها من الألفاظ، لما أفادتـــه من معنى التعظيم مع الإيجاز. لأن معنى التعظيم قد يكون في اللفظ المركب كقوله : (ما شغلكم الخطير، أو ما أمركم العظيم). و هذا فيه تطويل في الكلام.

ورأينا أنّ هذه الكلمة قد تكررت في القرآن الكريم ، ودلّت على معنى التعظيم في جميع توظيفاتها. ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ...**قَالَ مَا خَطْبُكُـــمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ** ﴾([3]).

و قوله تعالى: ﴿ **قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ** ...﴾([4]).

وقوله تعالى: ﴿ **قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ .قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ، إِلَّا آَلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾([5]).

و قوله تعالى: ﴿ **قَـــالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ** ﴾([6]).

و قوله تعالى:﴿ **قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ** ﴾([7]).

و المتتبـــع لهذه الآيات يرى أن فيها ما يدل على العظمة والشدّة. فرغبة البنـــتين الشديدة في السّـــقي أوجبت استعمال لفظة الخطب ، لتفي بالغرض وتعبر عن حالهما.وحـــال النّسوة اللائي كدنا ليوسف أمر في غاية العظمة، لا يُعبِّرُ عنه إلا لفظ (الخطب) . و نفس العظمة هي عند السّامريّ لمّا أخرج العجل، و عند سيدنا إبراهيم لمّا استعظم ما جاء به المرسلون.

---

[1])- الذاريات : 31.
[2])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 28/ ص 216.
[3])- القصص : من 23 .
[4])- يوسف : من 51.
[5])- الحجر : 57 – 59.
[6])- الذاريات : 31 – 33 .
[7])- طـه : 95.

ذكر ابن عطية هذا المعنى فقال : « و الخطب : الأمـــر المهمّ ، و قلّ ما يعبَّر به إلاّ عند الشدائد»([1]).

المســـارعة : و ذكر الرازي مجال هذه اللفظة، ورأى أنها لا تستعمل إلاّ في سياق الخير.

قال تعالى:﴿ **وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ ([2]) .

يقول الـــرازي في هذه الآيـــة : « إنّ لفظ المسارعـــة إنّما يستعمـــل في أكثر الأمر في الخير... فكـــان مـــن اللائق في هذا الموضع لفظة العجلة، إلا أنه تعالى ذكر لفظ المسارعة لفائدة ، و هي أنّهم يقدِمون على هذه المنكرات كأنهم محقون فيها » ([3]).

ومن الملاحظ أن الرازي لم ينظر إلى الكلمة و موقعها في سياق الآية فحسب ، بل نظر إلى مجال استعمالها في القرآن الكريم ، وفي لهجات العرب . فلمّا رأى أنّ كلمة (يسارعون)كثيرا ما استعملت في سياق الخير، طبّق هذا المعنى في هذه الآية. إلاّ أنه فرّق بين معنى الخير فيها،ومعنى الخير في الآيات الأخرى . و ذلك بأنهم كانوا يقومون بالمنكرات و يظنون فيها الخير.

[1])- أبو محمد عبد الحق بن عطية ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط01، 2001، ج 05/ ص 178.

[2])- المائدة : 62.

[3])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 12 / ص 39.

05 – أثر السياق القرآني في التطور الدلالي للكلمة:

تتكون الكلمات من أصوات تثيـــر في الذهن معان محددة عند مستعملي اللغة، و لكنها تتطور مع الزمن، لتأثيرات سياسية و دينية و عادات، و غيرها من أحـــوال المجتمع. فتكون لها حياة جديدة في الاستعمال، تكتسب من خلالها معان جديدة.

و يرى علماء اللغة أن التطور الدلالي هو تغيير الألفاظ لمعانيها. و مفهوم التطور في علم الدلالة لا يعني لنا- دائما- التطور في اتجاه متصاعد، بل يمكن للمعنى أن يتسع أو يضيق، وبذلك يكون العام الخاص، و نجد بعضهم يفضّل مصطلح (تغير المعنى) على مصطلح (التطور الدلالي).

وقد يقضي الزمن على دلالات صارت قديمة لطائفة من الألفاظ ، و يكتب لغيـــرها حياة جديدة. و هذا ما حدث في العصر الإسلامي الذي رافقه تطور كبير في دلالة الألفاظ، فظهرت ألفاظ لم تكن معروفة قبل الإسلام، و تخصصت ألفاظ أخـــرى بعدما كانت عامة مثل المسجد و المحراب و الصلاة و الزكاة و غيرها .

و الكلمة عند أهل اللغة لا تؤلِّف قيمةً تواصلية و هي خارج السياق ، و إنّمـــا ينكشف معناها من خلال تسييق الوحدة اللغوية، أي: وضعها في سياقات مختلفة ([1]).

إن استعمال اللفظ في مجالات حياتية مختلفة يكسبه نمواً وتطورا يتماشى و حاجـــات المجتمع والتغيرات التي تطرأ فيه . و دليل ذلك استعمال ألفاظ معيـــنة بمعان جديدة بعد ظهور الإسلام . استجابة للمضامين التي تضمنّها.

و بنـــاء على هذا يمكـــن القول أن الكلمة تظهر في السياق كأنها مولود جديد، تستمد إيحاءاتها مما يحيط بها من الكلمات، متأثرة بالبيئة الجديدة التي وضعت فيها. و تكون عند وضعها في هذا السياق مرت بمرحلتين:

- مرحلة توزيع الشحنة الدلالية.
- مرحلة إعادة الشَّحن.

و يظهـــر الأثر الإيجابي للسياق في مرحلتها الثانية ، حين يُكسِبها معنى جديدا ينسجم مع المعاني التي تنتظم معه في ذلك السياق .

و نذكر على سبيل المثال كلمة (خمر) في قوله تعالى:﴿ **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيـــهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آَسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْـــهَارٌ مِنْ عَسَلٍ**

[1])- ينظر: أحمد مختار عمر ، علم الدلالة ، ص 68.

مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾([1]).

يقول الأصفهاني : « و الخمر سميت لكونها خامـــرة لمقرّ العقل ، و هو عند بعض الناس اِسم لكلّ مسكر » ([2]).

إنّ كلمة (الخمر) في غيـــر هـــذه الآية توحي ببعض الخصائص التي لا تخلو من تحقير و استهجان، ولكن وضعها في هذه الآية مع أخواتها من الكلمات الأخرى(الماء ، اللّبن ،العسل) مَنَحَها خاصية جديدة تجعل شاربها يتلذّذ بشربها. والمعروف أنّ الخمرَ في الدنيا كريهة الطّعم.

و يبين الرازي أنّ الكلمة لا ينكشف معناها إلاّ من خلال وضعها في السياق، فالصفـــات التي ذكرت بعد : الماء، و اللبن، و العسل أضافت لهـــذه المشروبات معنى جديدا، وهو خلوّها من النّقص، لأن الماء قد يَأْسَن ، بمعنى يفسد، واللبن يتغير طعمه إذا بقي زمناً طويلا، و العسل يشوبه جزء من الشمع ، و الخمر كريهة الطعم .

و الحقيقة أن التطور الدلالي لم يحدث في كلمة (خمر) فقط، بل في الكلمات الأربعة؛ لأن لفظ الماء خارج السياق يعني الصالح و الفاسد، واللبن فيه الجديد، وفيه ما تغير طعمه ، و العسل كذلك ، وهذا تطور دلاليّ ، و انتقال من التعميم إلى التخصيص . بمعنى أنّ معناها في هذه الآية كان ضمن معانيها خارج السياق .

أمّا الخمر فقد اكتسبت معنى جديدا لم يكن من معانيها و هي خارج السياق ، فلا توجد خمر في الدنيا لذيذة الشرب .

إلاّ أن أثـــر السيـــاق بهـــذه القوة ليس مطّـــرد الوقـــوع،فقـــد لا تقـــوى – في بعض الأحيان– الكلمات المجاورة على إعطاء الكملة إيحاء جديدا ، وذلك لقوة دلالة الكلمة الفردية و الاجتماعية و التاريخية . فيحدث صراع بين السياق الداخلي السياق الخارجي.

و في القرآن الكريم ألفاظ كثيرة اكتسبت حياة جديدة في عصر الإسلام. ونحن — في هذا البحث – نحاول ذكر بعض الألفاظ التي تطوّرت دلاليا ، و إبداء رأي الإمـــام الرازي في هذا التطوّر . و نحاول أيضا أن نقف عند الرازي و هو يشتغل بالسيـــاق ليكشف عن تلك المعاني الجديدة.

---

[1])- محمد : 15.
[2])- الراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن، ص 159.

قال الرازي في تفسيره لقوله تعالى:﴿... **وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا**...﴾([1]):«الربافي اللغة العربيـــة عبارة عن الزيـــادة .يقـــال: ربا الشيء يربـــو، و منه قوله (اهتزت و ربت)،أي: زادت » ([2])، و هذا التعريف نجده في معظم معاجم اللغة العربية.

و الظاهر من قولهـــم أن هـــذه اللفظة كانت مستعملة لمطلق الزيادة على رأس المال،ثمّ انتقلت هذه اللفظة من اللغة لتستعمل في الشرع. و تدل على معاني لم تكن معروفة عند العرب.

و قد أشار القرطبي إلى مفهوم الربا فقال: « أي إنمـــا الزيـــادة عند حلول الأجل آخراً كمثل أصل الثمن في أول العقد. و ذلك أن العرب كانت لا تعرف ربا إلاّ ذلك ... فحرّم الله سبحانه ذلك، وردّ عليهم قولهم بقوله الحق: (وأحلّ الله البيع و حرم الربا)، وأ وضح أنّ الأجل إذا حلّ و لم يكن عنده ما يؤدّي أُنظر إلى الميسرة »([3]) .

و في قوله (إلاّ ذلك) بيان أنّ للرّبا أصناف ، و عوّل الـــرازي على السياق الاجتماعي لتوضيح معنى الربا، وبيان أقسامـــها ، فهـــو يرى أن الذي كـــان معروفا عند الجاهلية هو ربا النسيئة . أمّا ربا الفضل ، أو ربا النقد، فلم يذكره الرازي أنّه كان معروفا عندهم ([4]).

و الحقيقة أن لفظ الربا قد تطوّر دلاليا قبل مجي الإسلام .فقد كان يعني الزيادة في كل شيء، ثم دخل اللفظ حياة جديدة، وهي المعاملات التجارية فاختص بمعنى الزيادة المادية،ثم أخذ مفهومه الجديد في عصر الإسلام مع مجيء آيات تحريم الرّبا.

ومن الألفاظ التي شهدت تطورا دلاليا مع مجيء الإسلام لفظة (التيمّم)، فقـــد دخلت هذه اللفظة استعمال جديدا منحها روحـــا جديدة . فالتيمّم في اللغة أصله يـــمّ ، « وهـــو كلمة تدلّ علـــى قصد الشيء و تعمّده... يقـــال تيمّمت فلانـــا بسهمي ورمحي إذا قصدته دون سواه » ([5]). ونفس المعنى نجده في معاجم اللغة العربية، وهو الأصل في التيمم،و لم يستعمل في الشعر إلاّ في هذا المعنى ،واستعمل في القرآن الكريم بأصل معناه في قوله تعالى :﴿ **وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ**﴾([6]).

---

[1])- البقرة : من 275 .
[2])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ج ، 07 / ص 85.
[3])- أبو عبد الله محمد القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج 03/ ص 230.
[4])- فخر الدين الرازي ، المصدر السابق ، ج 07/ ص 85.
[5])- أبو الحسين أحمد بن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، ج 06 / ص 152.
[6])- البقرة : 267.

قال الرازي في هـــذه الآيـــة :« يقـــال أمـــمته ، و يممته و تأممته كلّه بمعنى قصدته. قال الأعشى:

تيممت قيسا وكـــــم دونه من الأرض من مهمه ذي شرف »([1]).

فالمعنى العام للفظ قبل نزول القرآن الكريم أصله التوخي و القصد ، وقد أخذ هذا اللفظ منحاه الجديد في الإسلام ، و من ذلك معناه في قوله تعالى : ﴿... **وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا** ﴾ ([2]) .

وبهذا الاستعمال الجديد للفظ (التيمّم) في لغة التنـــزيل يضيق معنـــاه، فيصبـــح معناه التوخّي و القصـــد بطـــريقة معينة يوضّحـــها الله سبحانـــه و تعالـــى في الآيـــات التي تأمر بالصلاة، وتفرض الاغتسال و التطهر قبلها. و لا يمكن فهم هذا المعنى فهـــما حسنا إلاّ إذا عوّل المفسّر على سياق الآية. فالتيمم المذكور في سورة البقرة لا يعني التيمم المذكور في سورة النساء و المائدة، ففي سورة البقرة يعني القصد، و هو أن تقصد المال الرّديء، وتنفـــق منه ، وهذا هو المعنى الأصلي للتيمم . أمّا في سورة النساء وجـــد لفظ (تيمم) موقـــعا جديـــدا بين مجموعة من العبادات منحه معنى جديدا. فقد صار مصطلحا إسلاميا يدلّ على حالة من حالات التطهّر.

و كلمة (سجد) مثـــال آخر من الكلمات التي تطوّرت دلاليا في عصر الإسلام.

قال ابن فارس: « السين و الجيم و الدّال أصل واحد يدلّ على تطامن وذلّ. يقال سجد إذا تطامن، وكلّ ما ذلّ فقد سجد. وقال أبوعمرو:و أسجدَ الرجل إذا طأطأ رأسه و انحنى»([3]).

و أضاف الأصفهاني أنّه عام في الإنسان و الحيوان و الجمادات ([4]).

و معنى قوله (وهو عام) هو أن السجـــود في القـــرآن الكريم أسند إلى عناصر متعددة من خلق الله، كالملائكة و الشمس القمـــر و النّجم و الشجر و الإنسان ، و كل من في السموات و الأرض . و في آيات أخرى أسند السجود إلى إبليس الذي أبى أن يكون من الساجدين.

وكان الإنسان يسجد في القديم لغيره إمّا رهبة أو رغبة في التقرب منه. وهو سجود التحية للأمراء و السلاطين.

---

[1])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 07 / ص 62.
[2])- النساء : 43.
[3])- أبو الحسين أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة ، ج 03 / ص 133.
[4])- الراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن، ص 223.

وكان الرازي يرجع في كثير من الأحيان إلى المعنى اللّغوي للكلمة، ثم يُعمِل السياق بنوعيه للكشف عن معناه في الآية. فالسجود عنده هو الخضوع و الانقياد، و يستشهد بقول الشاعر: ترى الأكمّ سجّدا للحوافر([1]).

و في قوله تعالى:﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** ﴾([2]) ، يبيّن الرازي دلالته في الشرع، فيقول: « ... أنّه في عرف الشّرع عبارة عن وضع الجبهة على الأرض »([3]).

وذكر الرازي أيضا أن السجود جاء بمعنى الصلاة. وذلك في تفسيره لقوله تعالى:﴿ **يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ** ﴾ ([4])، حيث قال : « أن الصلاة تسمى سجودا كما قيل في قوله (و أدبار السجود)، وفي الحديث (إذا دخل أحدكم المسجد فليسجد سجدتين)، وأيضا المسجد سمي باسم مشتق من السجود، و المراد منه موضع الصلاة وأيضا أشرف أجزاء الصلاة السجود. وتسمية الشيء باسم أشرف أجزائه نوع مشهور في المجاز»([5]).

و السجود في السياق القرآني ضربان : سجود باختيار، و سجود بتسخير .

أمّا الأول: فهو للإنسان ، ويستحق به الثواب . و أمّا الثاني: فهو للإنسان و لغيره من المخلوقات ، كالشمس والقمر و الشجر وغيرها ([6]).

ومن الملاحظ أن لفظ (سجد) أخذ شحنة دلالية لم تكن فيه من قبل . فقد أصبح مصطلحا إسلاميا يدل على حركة عبادية معينة ، و ركن من أركان الصلاة يأتي بعد الرّكوع، و يكون ذلك بوضع الجبهة على الأرض خضوعا و انقيادا لله عزّ و جلّ ،و أصبح هذا اللفظ لا يوظف إلاّ في سياق الحديث عن العبادة.

---

[1])- ينظر : فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 02/ ص 213.
[2])- البقرة : 34.
[3])- المصدر نفسه ، ج 02 / ص 213.
[4])- آل عمران : 43.
[5])- المصدر نفسه ، ج 08 / ص 44 .
[6])- الراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن، ص 223 – 224 .

الفصل الثاني

أثر السياق في اختيار التراكيب

01- التقديم والتأخير .

02- الحذف.

03- أسلوب الاستفهام.

توطـــــــئة:

يرى النّحـــاة أن مقاييس اللغة تستمدّ معطيات نظامها الداخلي للبناء اللغوي من معطيات السياق الاجتماعي التي تكتنف الاستعمال اللغوي. والسياق اللّغوي يتكون من عنصرين أساسين هما : عناصر الأداء الكلامي (الألفاظ) ، وعناصر الحدث الكلامي (الموقف الكلامي).

وبناء على ما سبق يمكننا القول بأن هذا السياق سياق مركب اهتم النحاة بشقيه، فهـــو الـــذي يحكم لنا أن النظام النحوي هو تلك العلاقـــات بين الدّلالات والوظائف النحوية حتى التفاعل الذي يكسبها معنى مفيدا، ومن ثم تتحقق الدلالة السياقية النحوية، فينكشف المعنى على مستوى التركيب .

وجميع المحاولات في تفسير الكلام، وتحقيق غايته في الإيصال والإفهام لا يخرج عن وظيفـــة اللغة الاجتماعيّة، فلا يتمّ التّفاهم في أيّ لغة إلاّ إذا روعيت تلك المناسبات. ولن يكون الكلام مفيدا، ولا الخبر مؤديّا غرضه،ما لم يكن حال المخاطب ملحوظاً ، ليقع الكلام في نفس المخاطب موقع الاكتفاء والقبول ([1]).

وفي حديثنا عن علاقة النّحو بالمعنى ننطلق من تعريف ابن جني للنّحو على أنه:« انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب و غيره » ([2]).

والنّحو منذ نشأته وثيق الصّلة بالمعنى، فقد وقف النّحاة الأوائل على أساليب التعبير في كلام العرب، وعنوا بأمور التقديم و التأخير، والذكر والحذف. وعنوا بأواخر الكلمـــات وما يعتـــريها من إعراب و بناء، باعتبارها موضوعات علم النّحو. وعلمُ المعاني قريب الصلة من علم النحو.

وممّـــا لا شك فيه أن السيـــاق النّحوي هو الذي يدرس البنية النحـــوية التي ترِدُ فيـــها الكلمة، باعتبارها وحدة نحويـــة، وأنَّ الكلمـــات تتوالى علـــى نسق مرتّب، وتخضع في ترتيبها إلى أنساق تركيبية مطّردة . و السيّاق النّـــحوي يبحث في معنى الجملـــة . ومعنى الجملة ليس مجموع معاني الكلمات المفردة التي ترد فيها، إذْ أنَّ التغيير في البنية النحوية، و علاقات الكلمـــات و وظائفها، ومواقعها في الترتيـــب من شأنه أن يبدّل في المعنـــى ([3]) . ومثال ذلك فإن جملـــة (فازت مريم على سعاد) يتغيّر معناها مع كل تغيير في مواقع كلماتها .

---

[1])- ينظر : مهدي المخزومي ، في النحو العربي ، دار الرائد العربي، بيروت، ط02 ،1986، ص 225.

[2])- أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص ، تح محمد علي النجار،دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط01 1990،ج 1 / ص 35.

[3])- ينظر: عودة خليل أبو عودة، التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن، مكتبة المنار،الزرقاء، الأردن،ط 01 ، 1985، ص 75-76.

يؤكد الباحثون على أن التّـــركيب تختبئ في خصائصـــه و أحوالـــه إشاراتٌ و دلالات مختلفة، و إنّ السياق هـــو الذي يستخرج من هذه الخصائص مقتضياته، وكأن التركيب النفيس أشبه بقطعة من معدن نفيس تعطي ألواناً كثيرة كُلَّما أَدَرْتَها إدارةً جديدة، والسياق هو القوة التي تحرّك هذه القطعة لتشعّ من ألوانه ما يراد إشعاعه ([1]).

وبناء على هذا فإن السياق النحوي هو شبكة من العلاقات النحوية ، يتضح فيـــها المعنى مع وضوح كل علاقة من هذه العلاقات. والمعنى لا يتضح، والدّلالة لا تكون إلاّ بتآخي و تضافر قرائن السياق النحوي .

وقد درس علماء التفسير المعنى على مستوى التركيب ، وأعمَلوا السياقَ في اســـتنباط المعنى على هذا المستوى .

وقد أكّـــد الرازي على أنه لا يكـــون الكلام منظوما إذا لم تحتـــرم هـــذه الأساليب قوانين النحو ، فيقول:« ليس النظـــم إلا أن تضع كلامـــك الوضع الذي يقتضيـــه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله »([2]). وموضوعنا في هذا الفصل هو الوقوف عند رؤية الرازي لهذه الأساليب واجتهاده لمعرفة السرّ من وراء اختيار أسلوبٍ دون آخـــر، و سنحاول دراسة هذه النظرة على مستوى ثلاثة مباحث:

1-التقديم والتأخير .

2- الحذف .

3- أساليب التعبير .

[1])- ينظر: محمد أبو موسى ، دلالات التراكيب، دار العلم للطباعة، مكتبة وهبة ، القاهرة، ط01، 1979، ص 253.

[2])- فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تح بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ط01، 1985،ص277- 279.

01 – التـــقديم و التأخيـــر :

سبقَ وأنْ قلنا أن معنى الجملة ليس هو مجموع معاني المفـــردات التي تتكـــون منها، بل هو حصيلة تركيب هذه المفردات في نمط معين ، حسب قواعد لغوية محددة , فالساعة ليست مجموعة القطع المعدنية التي تتكون منها بل هي آلـــة تتكون من هذه القطع حسب قواعد معدنية لتؤدّي وظيفة لا تؤديـــها أي من القطع وحـــدها, ولا تؤديها كل القطع مجتمعة إلا إذا ركبت بطريقة محددة([1])، فمعنى الجملة يتغير مع كل تقديم أو تأخير في عناصرها .

أ– *المفهوم الاصطلاحي لأسلوب التقديم و التأخير*:

أسلوب التقديم والتأخير فنّ نحويّ بلاغيّ ينتمي إلى علم المعاني , يعنى بتقديم الألفاظ والجمل بعضـــها على بعض، لتحقيق غاية بلاغيّة معينة يقصدهـــا المتكلم, تختلف بحسب نوعية الألفاظ المقدّمة و سياق التعبير , وما كانت لتؤدّي تلك الغاية لو أنّـــها بقيت على مكانها الذي حكمت به قاعدة الانضباط اللغوي ([2])، فهو طاقـــة أسلوبية و انزياح سياقي عن القاعدة الخاصة بترتيب الكـــلام قصد فائدة معينة. فتقديـــم ما هو متأخـــر أو تأخيـــر ما هو متقـــدم لفائدة أَمْرٌ جائز في اللغة العربية.

ثمّ إنّ مرونة اللغة العربية في ترتيب أجزاء جملها هي التي جعلتها تفرض لنفـــسها جوازات مخالفة للسيّاق القانوني العام لترتيب عناصر الجملة . والتّقديم و التأخير من هذه الجوازات .

يقول الدكتور فاضل السامرائي: « إنّ تقديم الألفاظ بعضها على بعض له أسباب عديدة يقتضيها المقام و سياق القول ... فإنّا نـــراه يُقدّم لفظة مرة ،و يؤخرها مرة أخرى على حسب المقام » ([3]) .

ويُستعمَل التقديـــم والتأخير في تركيب واحد، فكما يكـــون في التعبير حاجة إلى تقديم شيء ، سيكون بالضرورة في حاجة إلى تأخير شيء آخر، .بمعنى أنّ تقديم شيء هو تأخير شيء آخر.

والتقديم و التأخير أسلوب من الأساليب البلاغية التي اعتمدها القرآن ، فهو يجعل الآية تابعة لمنهجٍ نفسي، يتقدم فيها ما تجد النفس تقديمه أفضل من تأخيره.

---

[1])- ينظر: فايز الداية، علم الدلالة العربي ، دار الفكر، دمشق، 1985، ص 21.
[2])- ينظر: منير سلطان، بلاغة الكلمة والجملة والجمل، مركز الدلتا للطباعة، الإسكندرية، 1988، ص 138.
[3])- فاضل صالح السامرائي، التعبير القرآني ، دار الفجر، بغداد ، العراق، ط01 ، 2008، ص 58 .

اهتمّ علماء التفسير بهذه الخصوصية القرآنية، وانطلقوا فيها ليكشفوا على دلالات مقصودة لم تكن في غيـــاب هذه الخصوصية .

وسنقف عند نظرة فخر الدين الرّازي لهذه الظاهرة اللغوية وكيف ينكشف المعنى المقصود في وجودها. وهذه أمثلة من تفسيره الكبير تبيّن لنا إعماله للسياق النحوي، حيث ربط علم النّحو بعلم المعاني ليكشف عن غرض السياق من تقديم بعض الألفاظ على الأخرى.

ب – *تقديم المسند إليه :*

وهو تقديم الإسم على الفعل ، أو تقديم الاسم على المشتق. ويبين الرازي أن تقديم الاسم على الفعل يفيد إمّا التخصيص أو التأكيد متأثرا في ذلك بالشيخ عبد القاهر الجرجاني.

ففي قولـــه تعالى: ﴿ **وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ** ... ﴾ ([1])، يورد الرازي قولا لعبد القاهـــر الجرجاني ليبين سبب تقديـــم الفاعل في هذا السيـــاق فيقـــول : « قال الشيخ عبد القاهر الجرجاني في كتاب دلائل الإعجاز: إنك إذا قدّمْت الإسم فقلت زيد فعل ، فهذا يفيد من التأكيد والقـــوة ما لا يفيـــده قولك فعل زيد، وذلـــك لأن قولك: زيـــد فعل يستعمـــل في أمرين (أحدهمـــــا) أن يكـــون لتخصيص ذلك الفاعل بذلك الفعل ، كقولك : أنا أكتب في المهمّ الفلاني إلى السلطان ... (الثاني) أن لا يكـــون المقصود ذلك، بل المقصـــود أنّ تقديم ذكر المحدّث عنه بحديث كذا لإثبـــات ذلك الفعـــل ، كقولهم : هو يعطـــي الجزيل، لا يريـــد الحصر، بل أن يحقق عند السامع أ، إعطاء الجزيل دأبه ...» ([2]).

ويذكر الزمخشري أن تقديم الاسم الظاهر يفيد الاختصـــاص . وذلك في موضـــع تفسيره لقوله تعـــالى : ﴿ **اللَّهُ نَـــزَّلَ أَحْسَـــنَ الْحَدِيثِ**...﴾ ([3]). فيقـــول : « و إيقـــاع اسم (الله) مبتـــدأ و بناء (نزّل) عليه فيه تفخيم لـــ (أحسن الحديث)، واستشهاد على حسنه ، و تأكيد لاستناده إلى الله وأنّه من عنده ، وأن مثله لا يصدر إلاّ عنه ، وتنبيه على أنّه وحـــي معجز مباين لسائر الأحاديث » ([4]).

وقوله: (تأكيد لاستناده إلى الله) إشارة إلى أنه يفيد الاختصـــاص. وفي قوله : (استشهـــاد على حسنه وتأكيد...) إشارة إلى أنه يفيد التوكيد.

---

[1])- البقرة :228.
[2])- فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، ج 6/ ص 87.
[3])- الزمر: 23.
[4])- أبو القاسم الزمخشري، الكشـاف ج 3/ ص 394.

والتقديم في التفسير الكبير لا يخرج عن إفادة هذين الغرضين.

فمن دلالة التقديم على الاختصاص قوله تعا لى : ﴿ ... **لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.** ﴾ ([1]).

يذكر الرازي في تفسيره لهذه الآية أنّ التقديم دالّ على الاختصاص ، فيقول: « إنّ علمه سبحانه وتعالى صفة قديمة أزليّة واجبة الوجود، وما كان كذلك اِمتنع أن يكون مخصوصا بالبعض دون البعض .فوجب كونه متعلقا بجميع المعلومات ، وإذا كان كذلك كان الله سبحانه عالما بجميع المعلومات » ([2]).

ويفرض السياق نفسه فيضيف الضمير للتأكيد ، ثمّ يقدّمه للتخصيص ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ...** ﴾ ([3]).

جاء هذا الكلام في سياق الحديث عن التوبة ، في سورة التوبة. فذَكرَ أنّه يقبل التوبة ويأخذ الصّدقات ، و سمّى نفسه باسم (الله)، ثمّ ذكر بعده الضمير (هو) ، وقدّمها على فعل القبول.

هذه كله قرائن توحي لنا بأنّ هذا التقديم تقديم فيه تخصيص و تأكيد قويّ إلاّ أنّنا رأينا الرازي في هذه الآية لم يصرح بالتأكيد ، و اكتفى بذكر فائدة التخصيص .

يقول الرازي : « في هذا التخصيص هو أنّ قبول التوبة ليس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، إنّما إلى الله الذي هو يقبل التوبة تارة و يردّها أخرى .فاقصدوا الله بها و وجّهوها إليه » ([4]).

وفي قوله تعالى : ﴿**وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آَمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ.** ﴾ ([5])، يذكر الرازي دلالة التقديم على التأكيد ، فيقول:« والفائدة من ذكر كلمة (هم) التأكيد في إضافة الكفر إليهم » ([6]).

وتأسيسا على هذا يمكننا القول أن الرازي كان يعتمد ظاهرة تقديم المسند إليه قرينة من السياق في فهم معنى التركيب

---

[1])- المائدة: 97.
[2])- فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، ج 12 / ص 102.
[3])- التوبة :104.
[4])- المصدر نفسه ، ج 16/ ص 185.
[5])- المائدة: 61 .
[6])- المصدر نفسه ، ج 12/ ص 38.

ج – تقديـــم المعطوفات وتأخيرها :

إذا كانت الواو مفـــيدة فـــي أصـــل وضعها للترتيب, أو لم تكن فـــإن المتكلم قد يُقدّم ما هو أهمّ وأولى عنـــده, فلا يضـــرّ إن كانت الواو لا تفيـــد الترتيب؛ لأن الترتيب قد يستفاد من قرائن أخرى ،كدلالة السياق ونحوها. وقد جعل بعضهم ترتيب الألفاظ علـــى حسب ترتيب المعاني في الجَنان بأحد خمسة أشياء : إمّا بالزمان, وإمّـــا بالطبع وإمّا بالرتبة , وإمّا بالسبب , وإمّا بالفضل والكمال ومن بين أنواع تقديم المعطوفات مايلي :

01 – تقديم المفرد على مثله :

تقديم لفظ "هارون " على لفظ " موسى " و تأخيره :

قال تعالى : ﴿ **فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آَمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى** ﴾ ([1]).

وقال تعالى : ﴿ **قَالُوا آَمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ** ﴾ ([2]).

وقال تعالى : ﴿ **قَالُوا آَمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ** ﴾ ([3]).

قدّم هارون على موســـى عليه السّلام فـــي الآية الأولى, وأخّـــره عنـــه في الآيتين الثانية والثالثة. وذكر بعضهم أنّه قُدّم مراعاة للفاصلة ، إلاّ أنّ الرّازي يخالف هذا , ويرى في هذا التقديم سرًا مقصودًا وليس مراعاة للفاصلة فحسب .

وقبل أن نبيّـــن رأي الرّازي في تقديـــم هارون عليه السلام على موسى عليه السلام نحاول معرفة نظرة الرّازي لذكر هارون في سياق الحديث عن قصة مـــوسى عليه السلام.

يقول الرازي : «... لمّا قالـــوا : (آمنا برب العالميـــن) قال لهـــم فرعـــون : إيّـــاي تعنون، فلمّـــا قالـــوا : (ربّ موسى) قال : إيّاي تعنون ؛ لأنّي أنـــا الذي ربّيت موسى , فلمّا قالوا : (هارون)، زالت الشبهة » ([4]) .

أمّا عند تـــقديم ذكر هارون على موسى عليهما السلام تزول الشبهة تمامًا. وبيّن الفخر ذلك لمّـــا قال : « والدليل عليـــه أنّهم قدّمـــوا ذكر هارون علـــى موســـى لأنّ فرعون كان

---

[1])- طه: 70 .
[2])- الشعراء:47 – 48.
[3])- الأعراف: 121 – 122.
[4])- فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، ج 14 / ص:206-207 .

يدعي ربوبيته لموسى ، بناءًا على أنه ربّــاه ، في قوله : " ألم نربّك فينا وليدًا ". فالقوم لمّا احترزوا عن إيهامات فرعون لا جرم قدّموا ذكر هارون على موسى قطعا لهذا الخيال »([1]).

وما يثير التساؤل في هذه الآية هو قول السحرة , فهل حكى الله سبحــانه وتعالى قــولهم بلفظه أم بمعناه ؟ فإن كــان بلفظه فلا بدّ أنهم قدّموا أحدهما على الآخر, وإن كان بمعناه , فإنّ فرعون لم يكن وقت نزول القرآن وبذلك لا يكون تقديم هارون على موسى عليه السلام لإزالــة الشبــهة لأن فرعــون قدْ مات وهو الذي قال : " إيــاي تعنون " وهذا يرجــح رأي الذيــن قالوا أن الواو لا تقتضي الترتيب والتقديم والتأخيــر في هذا الموضع إنّمــا كان مراعاة للفاصلة لا لشيء آخر.

تقديم اللّهو عــلى اللعب :

قال تعالى:﴿ **وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِــبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآَخِــرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُــوا يَعْلَمُونَ** ﴾ ([2]).

وقال تعالى : ﴿**وَمَا الْحَيَــاةُ الدُّنْيَــا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْــوٌ وَلَلدَّارُ الْآَخِــرَةُ خَيْــرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُــونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ.** ﴾ ([3]).

وقال أيضا : ﴿ **إِنَّمَــــا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ و إِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُــــورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ.** ﴾ ([4]).

وقال أيضا: ﴿ **اعْلَمُــوا إِنَّمَا الْحَيــَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَــةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ...**﴾([5]).

ورد اللّهو و اللّعب في آيات تعلّقت بالدين وفي آيات تعلقت بالدّنيا. و ما ذكره من الآيات كلّه متعلق بالدّنيا. وتقدم اللهو عن اللعب في الآية الأولى ، و تأخر في الآيات الثلاثة الباقية.

وقبل أن نحاول معرفــة سرّ هذا التقديم ، لا بدّ أن نشير إلى معنى اللهو و اللعب في المعاجم اللغوية .

---

[1])- فخر الدين الرازي، التفسير الكبير ج 22 / ص 87.
[2])- العنكبوت :64
[3])- الأنعــام : 32.
[4])- محمد: 36.
[5])- الحديد: 20.

جاء في لسان العرب ، أن اللّهو ما لهوت به، ولعبت به، و شغَلك من هوى و طرب ، ونحوهما ([1]) .

واللّعب ضد الجد ... سمّي اضطراب الموج لعبا لمّا لم يسر بهم الوجه الذي أرادوه ويقال لكل من عمل عملا لا يجدي عليه نفعاً : إنّما أنت لاعب ([2]).

وذكر الأصفهاني معنى اللهو في المفردات ، فقال : « اللّهو ما يشغل الإنسان عمّا يعنيه و يهمّه ، يقال لهوت بكذا و لهيت عن كذا ، اشتغلت عنه بلهو »([3]).

و يبيّن الرازي الفرق بين اللهو و اللعب، حتى يصحّ عطف أحدهما على الآخر. فيقول: « أن اللعب ما تشتغل فيه ولا يكون فيه ضرورة في الحال ، و لا منفعة في المآل. ثمّ إن استعمله الإنسان و لم يشتغله عن غيره و لم يثنه عن أشغاله المهمة فهو لعب، وإن شغله و دهشه عن مهماته فهو لهو» ([4]).

أمّا عن تقديم اللهو عن اللعب في سورة العنكبوت، فيعتمد الرازي على سياق ترتيب الآيات في القرآن الكريم ، وعلاقة بعضها ببعض لفهم سرّ هذا التقديم . و لم يكن الرازي يفسر ظاهرة من الظواهر اللغوية إلاّ بالنظر إليها و هي متعلقة بما قبلها و بما بعدها .

وفي هذا الموضع يقول الرازي : " قال هناك (*): (إلاّ لعب و لهو)، وقال ههنا: (إلاّ لهو و لعب) .فنقول : لمّا كان المذكور هناك من قبل الآخرة ، و إظهارهم للحسرة ففي ذلك الوقت يبعُد الاستغراق في الدنيا ،بل نفس الاشتغال بها فأخر الأبعد. أمّا ههنا لمّا كان المذكور من قبل الدنيا وهي خداعة تدعو النفوس إلى الإقبال عليها والاستغراق فيها اللهمّ إلاّ لِمانعٍ يمنعه من الاستغراق فيشتغل بها من غير استغراق فيها، ولِعاصمٍ يعصمه فلا يشغل بها أصلا. فكان ههنا الاستغراق أقرب من عدمه فقدم اللهو . » ([5]) .

إعتمد الرّازي في فهمه لِسرّ هذا التقديم على الآية السابقة له . ففي قوله تعالى : ﴿... **إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ** ... ﴾ من سورة الأنعام كان يسبقه الحديث عن الآخرة، و حسرة

---

[1])- ينظر : أبو الفضل جمال الدين بن منظور، لسان العرب . ج 5 / ص 531 .
[2])- ينظر: نفس المصدر . ج : 5 / ص : 501 .
[3])- الراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن . ص: 455.
[4])- فخر الدين الرازي، التفسير الكبير ج 28 / ص 73 – 74 .
* يشير إلى الآية 32 من سورة الأنعام.
[5])- المصدر نفسه ، ج 25 / ص 91.

الخـــاسرين, وهذا الحـــديث يستبعد الاستغراق في الدّنيا ، فيستبعد اللّهـــو الذي هو الإعراض عن الحق ، ولذلك آخر الأبعد .

أمّا في سورة العنكبوت فكان قبل قوله: (... إلاّ لهو و لعب...) حديث عن الحيـــاة وخيراتـــها، وهذا يدعو النفـــوس إلى الإقبال عليها، فيكون الإعراض عن الحق, ولهذا قدّم اللّهو في هذا الموضع لأنّه أقرب من الوقوع .

يقول الرازي : « فالذي يقبـــل على الباطل للذة يَسيـــرةٍ زائلةٍ فيه، يلزمه الإعـــراض عن الحق . فالإقبال على الباطل لعب , والإعراض عن الحق لهو »([1]).

وأشار الفخر في تفسيره لقوله تعالى:﴿ **اعْلَمُوا أَنَّمَـــا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ** ﴾([2]) إلـــى أنّ اللّعـــب فعْل الصّبْيان، واللّهـــو فعْلُ الشبـــّان ([3])، إلاّ أنّه لم يعتمـــد هذا المعنـــى في فهم سرّا التقديم، واعتمده غيره من المفسرين .

تقديم الإنس على الجن وتأخيره :

ورد لفظ (الجن) و (الإنس) في مواضع كثيرة في القرآن الكريم ومن بينهـــا ما يلي:

قال تعالى:﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ** . ﴾ ([4]).

وقال تعالى : ﴿ **قُـــلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُـــونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** . ﴾ ([5]).

تقدّم لفظ (الجنّ) في الآية الأولى , و تأخر في الآية الثانية. فما السرّ في ذلك ؟

يجيب الـــرازي على هذا الســـؤال معتمدا على علاقة هذه الكلمة بما يحيط بها من العناصر اللغوية.

إنّ سياق التحدي بالنفوذ في أقطار السموات والأرض يفرض تقديم (الجنّ)، لأنّهم أقدرُ على الحركة من الإنس. والنفوذ من أقطار السموات والأرض إذا حَصَل لغيره الله فهو أَلْيَق بالجنّ.

---

[1])- فخر الدين الرازي،التفسير الكبير، ج 25 / ص 91 .
[2])- الحديد: 20.
[3])- ينظر : المصدر نفسه، ج 29 ص 233.
[4])- الرحمن :33.
[5]) – الإسراء: 22.

أمّا سيـــاق التحدي بالقرآن الكريم فإنّه يفرض تقديم لفظ (الإنس) ؛ لأنهم المقصودون بالتحدي قبل كل شيء.

يقول الرازي :« النفوذ من أقطار السموات والأرض ألْيق بالجن إنْ أمكن , والإتيـــان بمثل القرآن بالإنس أليق إن أمكن . فقدّم في كل موضع من يظنّ بالقدرة على ذلك » ([1]).

واستنادا على هذا التحليل يمكننا القول أن الرازي اعتمد في هذا الموضع السياق غير اللغوي لمعرفة علّة التقديم، فقد ربط هذا التقديم بحال المخاطب ، والذي هو الإنس و الجنّ.

تقديم المال على النّفس وتأخيره :

قال تعـــالى:﴿ **لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ...** ﴾([2]).

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ...**﴾ ([3]) .

أدرك الرازي أن الاسم لا يُقدَّم ولا يؤخَّر إلا لغرض يقصده السياق ، وإنّ تقدُّم لفظ (المال) على لفظ (النفس)في آية وتأخيره في أخرى إنّما كان لفائدة مقصودة .

يقول الرازي في تفسيره لسورة النساء : « لقائلٍ أن يقول إنّه تعالى قال :(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم)، فقدّم ذكر النفس على المـــال , وفي الآية التي نحن فيها , وهي قوله :(والمجاهدون بأموالهم وأنفسهم) قدّم ذكر المال على النفس فما السبب فيه ؟

وجوابه : أن النفس أشرف من المال , فالمشتري قدّم ذكر النفس تنبيهًا على أن الرّغبة فيها أشدّ , والبائع أخّـــر ذكرها تنبيهاً على أن المضايقة فيـــها أشدّ , فلا يرضـــى ببذلها إلا في آخر المراتب » ([4]).

02 – تقديـــم الجملة :

تقديم الإيمان على الإسلام :

وذلك في قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ** ﴾ ([5]).

---

[1])- ينظر: التفسير الكبير، ج 29 ص 113.
[2])- النساء: 95.
[3])- التوبة :111.
[4])- المصدر نفسه ، ج 11 / ص : 08.
[5])- المائدة: 111.

فتقديم الإيمان على الإسلام في هذه الآية دليل على الرتبة. والسياق قدّم الإيمان على الإسلام لأنّه أعلى رتبة و أكثر أهمية منه, وهو في هذا الموضع يقدم أعمـــال القلب على أعمال الجوارح لأهميّتها .

ذكر الرازي: « و إنّمـــا قدم ذكر الإيمان على الإسلام لأن الإيمان صفة القلب والإســـلام عبارة عن الانقياد والخضوع في الظاهر ...» ([1]).

و نظيره في قوله تعالى : ﴿ ... **فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِـــي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ** ﴾ ([2]).

قال الرازي:«الاستكبار والترفع وهو ذنب القلب, والثاني:الفسق وهو ذنب الجوارح, وقُدِّم الأوّل على الثـــاني ؛ لأن أحوال القلوب أعظم وقعا من أعمـــال الجوارح » ([3]).

وللفخر نص يشير فيه إلى أن التقديم والتأخير سواء في سياق الكلام الفصيح , فلا يطـــلب له فائدة .

ففي تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى**﴾ ([4]) .

يقول:« قدّم موسى ههنا و لم يقل كما قال (سبح بإسم ربك الأعلى) فهل فيه فائدة؟ نقول: مثل هذا في كلام الفصحاء لا يطلب له فائدة بل التقديم والتأخير سواء في كلامهم»([5]).

---

[1])- فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، ج 12 / ص 128

[2])- الأحقاف: 20.

[3])- المصدر نفسه، ج 28/ص25

[4])- النجم : 36-37

[5])- المصدر نفسه، ج 29 / ص 13.

02 – الحـــــــــذف:

الحذف من أدقّ أبواب البلاغـــة وأساليبها التي تعمـــل علـــى تحريك الحسّ, و تنشيط الخيال، وهو ظاهرة لغوية تشترك فيها اللّغات الإنسانيـــة, وتبدو مظاهـــرها في اللّغة العربية أكثر وضوحاً ([1]).

والعربية تميل إلى هذه الظاهرة الأسلوبية رغبة في التحقيق و الإيجاز، فتُسقِط جزءًا من الكلام أوكله لفائدة لم تكن في غياب هذا الإسقاط. وليس الذِّكر في العربية بأفصح و أوضح من الحذف في جميع الحالات. ويشمل الحذف في اللغة العربية الفعلَ و الاسمَ و الحرف. ثمّ إن السياق يدفع المتكلم في كثير من الأحيان إلى الاختصار و الحذف لبعض عناصر الجملة.([2]).

و لم يختلف النحـــاة على إقرار الحـــذف من حيث المبدأ، وعلى ضرورة تقديره للوصول إلى المعنى ، ولكنهم قد يختلفون في ذات المقدر المحذوف .

وممّا يبدو في القرآن الكـــريم أنّ السياق يجيز الحذف في كثير من المواضـــع ، و ترى لِعُلماء التفسير نظـــرات ثاقبة في تبيان هذه المواطـــن، و استنباط معاني الحذف فيها بعبقرية لغوية بصيرةٍ بفنون اللغة، و لاسيَما في النحو الذي هو فضاء هـــذه الظاهرة. وقد كـــان اهتمامهم في تقدير المحذوف بأن يناسب معنى الآية و سياقها التعبيري .

و الحذف خصوصية بلاغية من خصوصيات القرآن الكريم ، لأن من جمال الحذف أنّه متى ظهر المحذوف زال البهاء و الجمال في الكلام .

يقول الدكتور فاضل السامرائي: « قد يحذف في التعبير القرآني لفظ أو أكثر حسبما يقتضيه السياق ... لغرض بلاغيّ تلحظ فيه غاية الفن و الجمال ... »([3]).

والقرآن الكريم يميل إلى إسقاط بعض الألفاظ حسبما يقتضيه السياق ، فيثير إحساس المتلقي للكشف عن سرّ هذا الحذف ، فينشط خياله ويشعر بالمتعة في تلك اللحظة . لأن المتذوق للأدب لا يـــجد متاعَ نفسه في السياق الواضح ، و إنّما يجد متاعها في تحريك حسه و تنشيط خـــياله لمعرفة المعنى و السرّ من هذه الإيحاءات الرموز ([4]).

---

[1])-ينظر: طاهر سليمان حمودة، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي, الدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع ، الإسكندرية ،ص 09.
[2])- ينظر: محمد حماسة عبد اللطيف، النحو و الدلالة، ص 130.
[3])- فاضل صالح السامرائي، التعبير القرآني ، ص85.
[4])- ينظر: أبو موسى محمد ، خصائص التركيب، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، مكتبة وهبة، القاهرة،ط02، ص111.

و الإمام فخر الدين الرازي من المتذوقين للأدب و العالمين بأسرار اللغة ، فهو يحرك حسّه ويُنشط خـــياله للكشف عن أسرار الحذف في القرآن الكريم .

و تنوعت وقفات الإمام أمام أسلوب الحذف، فكثيرا ما كان يعتمد قوانين النحـــو لترشده إلى ظاهرة الحذف ، ثمّ يعتبر هذه الأخيرة قرينة سياقية ترشده – هي الأخرى – إلى معنى التركيب و تكشف له عن السرّ البلاغـــي المراد من هذا الحذف. وقد كـــان يرجع أحيانا حـــذف اللفظ إلى دلالة ما قبله عليه ، أو إلى علم المخاطب به، و أحيانا أخرى يذكر أن الغاية من الحـــذف هي الإيجاز والاختصار.

وهذه أمثلة تبين اعتماد الرازي على السياق اللغوي و غير اللغوي في تقدير المحذوف ، وبيان علة حذفه .

أ – حذف الاسم :

إسقاط الاسم نوع من أنواع الحذف، والسياق قد يستغني عن الاسم ويكتفي بقرينـــة تدل عليه .

وقد حدد النحـــاة شروطا خاصة لحذف الإسم، منها أن يكـــون المحذوف مبتدأ ، أو خبرا أو مفعولا به ، أو مضـــافا ، أو تمييزا وغيره .([1]). وورد أسلوب حذف الاسم في مواطن كثيرة من القرآن الكريم منها ما يلي :

قال تعالى : ﴿ **فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ** ﴾ ([2]).

يفرض السياق في هذه الآية حذف الخبر، و يبين الرازي ذلك في قوله :« ... فأصحـــاب الميمنة مبتدأ، أراد المتكلم أن يذكر خبره فرجع عن ذكره وتركه، وقوله (ما أصحاب الميمنة) جملة استفهامية على معنى التعجب ...» ([3]).

ويرجع الرازي الحذف في هذه الآية إلى علم المخاطب به فيقول:«... وذلك لأن من شرع في كلام و يذكر المبتدأ ثم يسكت عن الخبر، قد يكون ذلك السكوت لحصول علمه بأن المخاطب قد عـــلم الخبر من غير ذكر الخـــبر » ([4]).

و يورد الرازي ســـببين آخرين للحذف في هذه الآية و هما: الاختصار وطول القصة.

---

[1])- ينظر: طاهر سليمان حمودة، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي ، ص 199 إلى 251.
[2])- الواقعة: 08.
[3])- فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، ج 29 / ص 144.
[4])- المصدر نفسه ، ج 29 / ص144.

يقول في التفسير الكبير:«... و قد يسكت عن ذكر الخبر من أول الأمر لعلمه بأن المبتدأ وحده يكفي، لمن قال : من جاء ، فإنه إنْ قـــال : زيد ، يكون جوابا ... و قد يكون السكوت عن الخبر إشارة إلى طول القصة، كقول القائل: الغضبان من ؟ زيد ، و يسكت ثم يقول : ماذا أقول عنه ؟ ...» ([1]).

ومن حذف الاسم في القرآن الكريم حذف المفعول به في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ** ﴾ ([2]).

يقول الرازي في تفسيره لهذه الآية : « في الآية محذوف والتقدير: ولقد أرسلنا من قبلك رسلا ، إلا أنّه حذف ذكر الرّسل لدلالة الإرسال عليه ([3]).

يُعمِـــل الرازي السياق في تقديره للمحـــذوف, وذلك باعتمـــاده على القرينـــة اللفظية (أرسلنا) , إلا أنّنا لا نراه يبحث عن السرّ فـــي حذفه . فالوقوف عند الحـــذف يكون بعمليتين هما: تقدير المحذوف, و معرفة العلة من حذفه. فقدر المحذوف في هذه الآية وهو(رسلاً). و لم يذكر العلّة من حذفه .

وفي قوله تعالى :﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْـــلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ** ﴾([4]). يقدّر الرازي المحذوف ولا يذكر العلّة من حذفه ، فيقول :« واعلم أنّ المفعول الثاني من مفعولي – الاتّخاذ – محذوف والتقدير : اِتّخذوا العجل إلهاً ومعبوداً , ويدلّ علـــى هذا المحذوف قوله تعالى : (فأخـــرج لهم عجلاً جسداً له خـــوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى) »([5]).

أمّا في قوله تعـــالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَـــاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَـــارِئِكُمْ** ... ﴾ ([6]) ، فيبين الـــرازي سبب حذف المفعول الثاني بقوله :« لكن لّما دلت مقدمة الآية على هذا المحذوف حسُن الحذف " ([7]).

---

[1])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ج 29 / ص 144.
[2])- الحِجر: 10.
[3])- المصدر نفسه، ج 19 / ص 162 .
[4])- الأعراف 152
[5])- المصدر نفسه ج : 15 / ص 12.
[6])- البقرة 54
[7])- المصدر نفسه ، ج 03 / ص 80.

لم يقل الرازي : جاز الحذف ، و إنما قال حسُن الحذف . و المراد أن الحذف في هذه الآية أبلغ و أفصح من الذكر . فلو ذكر المفعول الثاني لزال البهاء و الجمال في سياق هذه الآية .

و يذكر الفخر أن الحذف يكون أحيانا للاختصار ، ومن ذلك حذف المضاف في قوله تعالى : ﴿ **وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** ﴾ ([1]).

وقف المفسرون عند الحذف في هذه الآية ، و بحثوا في السر من وراء هذه الظاهرة اللغوية ، و لا شكّ أنّهم جميعهم اِعتمدوا على السياق كقرينة توحي إلى المحذوف .

ولعل السياق المعتمد في هذه آية هو السياق الاجتماعي الثقافي ، فثقافة أيّ إنسان عاقل توحي له بأن القرية لا تُسأل و إنما الذي يُسأل أهلها .

و الرازي ـــ من بين هؤلاء المفسرين ـــ يبدي رأيه، فيقول : « ثم فيه قولان :

الأول : المراد واسأل أهل القرية ، إلاّ أنه حذف المضاف للإيجاز و الاختصار، و هذا النوع من المجاز مشهور في لغة العرب. قال أبو علي الفارسي : و دافِع جواز هذا في اللغة كدافع الضروريات ، وجاحد المحسوسات .والثاني : قال أبو بكر الأنباري :المعنى : اسأل القرية و العير و الجدار والحيطان فإنها تجيبك وتذكر لك صحة ما ذكرناه لأنك من أكابر أنبياء الله ...وفيه وجه ثالث ، وهو أن الشيء إذا ظهر ظهورا تاماً كاملا فقد يقال فيه سل السماء و الأرض وجميع الأشياء عنه، والمراد أنه بلغ في الظهور إلى الغاية التي ما بقي للشك فيه مجال»([2]).

ويورد القرطبي نصّا يوافق الوجه الثاني الذي ذكره الرازي ، و ينفي من خلاله الحذف في هذه الآية فيقول : « وقيل المعنى (و اسأل القرية) وإن كانت جماداً فأنت نبي الله و هو يُنطق الجماد لك . وعلى هذا فلا حاجة إلى إضمار » ([3]).

فالقرية و إن كانت لا تُسأل من عامة الناس ، فإنها تُسأل من أنبياء الله ؛ لأنهم قادرون على أن يُنطقوا الجماد والحيوان بإذن الله. وإن كان الإنسان تسأله ويكذب، فإن الجماد إذا سألته لا يكذب، لأن من أنطقه هو الله ، فكأن بسؤالك للجماد تكون قد سألت الله ، وأخذت القول الصادق .

---

[1])- يوسف: 82.
[2])- فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، ج 18 / ص 190-191.
[3])- أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، ج 09 / ص 161.

وما نلاحظـــه في هذه الآيـــة أن لفظ (القرية) أخذ حكم المحذوف , واكتسب إعـــراب المضاف، لأن حكمه في الأصل الجرّ وليس النصب .

ونرى الفخر يميـــل دائماً إلى الاختصـــار والإيجاز ؛ لأنه يرى أنّ من خصوصيات البلاغة العربية حذف الفضـــول من الكلام , وإقامة العبارة على الاختصار, و تصفيتها مما يثقلها ليؤدّي السياق غرضه.

ومن حذف الاسم في القرآن الكريم ما ورد في قولـــه تعالى: ﴿ **قَيِّمًـــا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا** ﴾ ([1])

الفعل (يـــُنذر) ينصب مفعـــولين، ولكـــن حُذِف أولهما، وتقديـــره : لينذر الكفـــار بأساً شديداً . فما العلّة من حذفه ؟

يقف الرازي عند هذا الحذف فيقول :« وأنذر متعدّ إلى مفعوليـــن كقوله : (إنا أنذرناكم عذاباً قريباً), إلاّ أنّه اِقتصر ههنا على أحدهما، وأصله (لينذر – الذين كفروا– بأساً شديداً)، كما قال في ضدّ ه: (ويبشر المؤمنين) ... وقوله لينذر وفيه دلالة على أنه تعالى أراد منه صلّى الله عليه وسلم إنذار الكل ..." ([2]).

يفضل السياق الحذف على الذكر في هذه الآية إشـــارةً إلـــى أن الإنذار للجميع، وأورد ابن عطية هذا في تفسيره المحرر الوجيز فقال:« والمعنى : لينذر العالم »([3]).

ب – حذف الفعل :

قد يحذف السياق الفعل من السلسلة الكلاميـــة في مواضع مختلفـــة, ولا يمانـــع من ذكره أو حذفه إذا دلّت عليه قرينة .

اهتم المفسرون بظاهرة حذف الأفعال واجتهدوا في البحث عن سر حذفها. والرازي – من بين المفسرين – له وقفات متعددة عند مواطن حذف الأفعال ، نذكر منهـــا مايلي :

قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَـــاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَـــا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ** ﴾ ([4]).

---

[1])- الكهف: 02.
[2])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير، ج 21 / ص 76- 77 .
[3])- أبو محمد عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز، ج 03 / ص 495 .
[4])- السجدة :12.

يبدو أن الفعل (يقولون) حذف لعلة سياقية دلالية. يتنبه لها الرازي و يقف عندها قائلا : « قال تعالى: (ربنا أبصرنا و سمعنا)، يعني يقولون أو قائلين: ربنا أبصرنا، وحذف يقولون إشارة إلى غاية خجالتهم ؛ لأن الخجل العظيم الخجالة لا يتكلم »([1]).

ففي هذا الحذف تعبير عن شدّة الموقف الذي هم فيه، وتصوير بارع لحالته اليائسة. و يعوّل الرازي أيضا على سياق المقام للكشف عن الحكمة من وراء هذا الحذف .

وحذفُ فعل القول كثير في القرآن الكريم ، وقد أشار المفسرون إلى كثرته. ومن ذلك أيضا ما ورد في قوله تعالى : ﴿ **إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا** ﴾ ([2]).

يقول الرازي في تفسيره لهذه الآية : « ... أن يكون التقدير (ولا تقولنّ لشيء إنّي فاعل ذلك غدا) إلاّ أن تقول (إن شاء الله)، و السبب في أنه لابد من ذكر هذا القول هو أن الإنسان إذا قال سأفعل الفعل الفلاني غدا لم يبعد أن يموت قبل مجيء الغد » ([3]) .

في هذا السياق يخاطب الله سبحانه و تعالى نبيّه محمّد صلّى الله عليه و سلّم حين سأله اليهود عن أصحاب الكهف ، فقال لهم : (غدًا أجيبكم) ، و لم يقل :(إن شاء الله). فأوجب الله قول (إن شاء الله) قبل الوعد بفعل أيّ شيء ، حتى لا يُعد كاذبا في حالة عدم القدرة على فعل الشيء .

يرى ابن عطية أن الحذف يكون في الكلام؛ لأن بعضه يدل على بعض، فيقول :« ... أي: إلاّ أن تقول : (إن شاء الله) ؛ فأجزأ من ذلك هذا ، وكذلك إذا طال الكلام ؛ أجزأ فيه شبيه بالإيماء ؛ لأن بعضه يدل على بعض » ([4])

وقدّر الرازي الفعل المحذوف في قوله تعالى : ﴿...**وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ** ... ﴾ ([5])، فيقول : «... ويقولون لهم أخرجوا أنفسكم من العذاب الشديد »([6]).

و يحْذف فعل القول من الكلام ، و لا يذكر علماء التفسير علّة لحذفه ، إلاّ الإيجاز و الاختصار لدلالة القول عليه .

---

[1])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ج 25 / ص 177.
[2])- الكهف: 24.
[3])- المصدر نفسه، ج 21 / ص 109.
[4])- الأخفش أبو الحسن سعيد بن مسعدة، معاني القرآن ، تح هدى محمود قراعة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ،ج 2 / ص 429.
[5])- الأنعام: 93
[6])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 13 / ص 85.

ولعل السياق استدعى الحذف في الآيات السابقة ليعطي مبعثـــا دلاليا، و هو صدم القارئ بغير المتوقع .

و من حذف الفعل حذف (خلق) في قوله تعالى:﴿ **إِنَّـــا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴾ ([1]).

يقول الرازي : « كلّ قرئ بالنصب وهو الأصحّ المشهور ، و بالرفع ، فمن قرأه بالنصب فنصبه بفعل مضمر يفسره الظاهر كقوله: (والقمر قدرناه)، و قوله: (والظالمين أعدّ لهم)، وذلك الفعل هو خلقناه، وقد فسّره قوله (خلقناه)، كأنه قال : إنّا خلقنا كلّ شيء بقدر ...» ([2]).

وقال: بفعل مضمر ويعني : بفعل محذوف ؛ لأن الإضمار عند القدامى يعني الحذف.

و يذكر الرازي و ابن عطية أن قوله : (خلقناه) قرينة تدل على الفعل المحذوف وليست في موضع الصفة لشيء .

يقول ابن عطية : « والمعنى : خلقنا كل شيء خلقناه بقدر ، و ليست (خلقناه) في موضع الصفة لشيء ، بل هو فعل دالّ على الفعل المضمر »([3]).

و يبدو أن الـــرازي عوّل على السياق الجزئي للقرآن في الكشف عن معنى الآية ، بتقدير الفعل (خلقناه).

في هذه الآية يظهر دور السياق النحوي بوضوح ، إذ أنّ قوانين النحو وأصوله تفرض علينا البحث عن علّة نصب (كلَّ) ، ثمّ تقديـــر المحذوف بعد إثبات حـــذفه ، ثمّ يأتي دور السياق غير اللغوي ليكشف عن السرّ البلاغي من وراء هذا الحذف .

وفي قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ ([4]).

يقدر الفخر المحذوف فيقول : « و جواب قوله : (إذا قيل لهم اتقوا) محذوف ، معناه و إذا قيل لهم ذلك لا يتقون أو يعرضون ، و إنما حُذف لدلالة ما بعده عليه ، وهو قوله تعالى: (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم) »([5]).

---

[1])- القمر: 49.
[2])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير، ج 29 / ص 72.
[3])- أبو محمد عبد الحق بن عطية ، المحرر الوجيز ، ج 05 / ص 221.
[4])- يس :45.
[5])- فخر الدين الرازي ، المصدر السابق، ج 26 / ص 82.

ونلاحظ أن الرازي يقف عند أسلوب الحذف ، فيقدر المحذوف ، ثم يذكر العلة من حذفه أحيانا ، وذلك بالنظر إلى هذا الأسلوب وهو مرتبط بما قبله وما بعده .فلا يقدر محذوفا ولا يذكر علة إلاّ إذا راعى السياق الذي ورد فيه الحذف.

ج – حذف الحرف :

يحذف الحرف في الكلام لغاية دلالية يتطلّبها السياق ، فقد تحذف الأداة من التركيب إذا كان حذفها لا يؤدي إلى لبس في المعنى ، أو هناك ما يدل عليها . وقد يحذف الحرف من بنية الكلمة القرآنية لدلالة يقصدها السياق، و للسياق النحوي أثر واضح في ذلك الحذف.

يقول الدكتور فاضل السامرائي :« قد يحذف في التعبير القرآني لفظ أو أكثر حسبما يقتضيه السياق ، فقد يحذف حرفا أو يذكره ، أو يجتزئ بالحركة للدلالة على المحذوف كل ذلك لغرض بلاغي تلحظ فيه غاية الفنّ و الجمال »([1]).

وقد تنبّه المفسرون إلى حذف الحرف ، سواء كان حرف معنى أو حرف مبنى وحاولوا أن يستنبطوا أسرار حذفه وجعلوا السياق بنوعيه – اللغوي وغير اللغوي– قرينة يعتمدون عليها في الكشف عن سر هذه الظاهرة اللغوية .

وسنذكر أمثلة من تفسير الرازي نبين من خلالها توظيفه للسياق النحوي كقرينة يعتمدها في تقديره للمحذوف و في اجتهاده في استنباط أسرار الحذف.

قال تعالى : ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا...** ﴾ ([2]).

حذف في هذه الآية حرف العطف (الفاء) ، وأصل الكلام : فغُلَّت أيديهم .

يرى الرازي أن في هذا الحذف قوة في المعنى و إظهار لأهميته ، فيقول : « حذف العطف و إن كان مضمرا ، إلاّ أنه حُذف لفائدة، وهي أنه لّما حذف كان قوله: (غُلَّت أيديهم) كالكلام المبتدأ به، وكون الكلام مبتدأ به يزيده قوة و وثاقة؛ لأن الابتداء بالشيء يدل على شدة الاهتمام به ، وقوة الاعتناء بتقريره ، ونظير هذا الموضع في حذف فاء التعقيب في قوله تعالى : (و إذ قال موسى لقومه إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزؤا) ، و لم يقل : فقالوا أتتخذنا هزؤا » ([3]).

---

[1])- فاضل صالح السامرائي ، التعبير القرآني ، ص 85.

[2]) المائدة: 64.

[3])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 12 / ص 42.

فالفاء في هذا الموضع توصل المعنى وتجعله واحدا ، و سقوطها ينبئ عن وجود جملتين و يفصل بين معنيين ، وقيام الكلام على القطع و الاستئناف يقوي الأسلوب ، و يجعله أشدّ في ردّ التّهمة و إبطالها.

و يرى معظم المفسرين أنّ جملة (غُلّت أيديهم) دعاء ، والجملة التي قبلها (وقالت اليهود يد الله مغلولة) خبرية ، و لا يمكن عطف الإنشاء على الخبر . وقد تنبه كل من الزمخشري و الزجاج و الأخفش و غيرهم إلى هذه القاعدة النحوية ، فلا نراهم يذكرون الحذف في هذا الموضع .

أمّا الرازي فيرى العطف في هذه الآية صحيحا ، على أن جملة (غلت أيديهم) إخبار وهو ما وجدناه في المحرر الوجيز لابن عطية حيث يقول : « وقوله تعالى:(غُلّت أيديهم) ... يحتمل أن يكون خبرا » ([1]) .

ومن حذف الحرف ما ورد في قوله تعالى: ﴿ هم **دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ** ﴾ ([2]).

الحذف في هذه الآية ينقل المعنى من الحقيقة إلى المجاز فيجعله أبلغ و أوضح . يقول الرازي : « تقدير الكلام : لهم درجات عند الله ، إلاّ أنه حسُن الحذف ،لأنّ اختلاف أعمالهم قد صيّرهم بمنزلة الأشياء المختلفة في ذواتها . فكان هذا المجاز أبلغ من الحقيقة ... ولذلك قال عليه الصلاة و السلام : (الناس معادن كمعادن الذهب و الفضة » ([3]).

ويبدو أن السياق قد فضّل الحذف على الذكر ؛ لأن الحذف في هذا الموضع يؤدي إلى المجاز، و المجاز تصوير يقرّب المعنى و يقوّيه . ومما نلاحظه أيضا أن الرازي قد عوّل على سياق الحديث الشريف في فهمه لمعنى الآية .

ومن حذف حرف المعنى أيضا ما جاء في قوله تعالى: ﴿**قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾ ([4]).

قال الرازي: « لا خلاف بين النحويين أنّ (على) محذوف ، و التقدير : لأقعدن لهم على صراطك المستقيم. قال الزجاج مثاله قولك : ضرب زيد الظهر و البطن ، والمعنى على الظهر

---

[1])- أبو محمد عبد الحق بن عطية ، المحرر الوجيز ، ج 02 / ص 215.
[2])- آل عمران : 163.
[3])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 09 / ص 75 .
[4])- الأعراف: 16.

و البطن. و إلقاء كلمة (على) جائز ، لأن الصراط ظرف في المعنى : فاحتمل ما يحتمله اليوم و الليلة ، في قولك آتيك غدا وفي غد »([1]).

وقد يستغني السياق عن الحرف الواحد من الكلمة القرآنية، إذا كان قريب المخرج من الحرف المجاور له. و من ذلك ما ورد في قوله تعالى : ﴿**فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا** ﴾ ([2]).

في الحقيقة أنّ هذا النوع من الحذف يكون على مستوى اللفظ لا على مستوى التركيب، إلاّ أنني آثرت أن أُدْرِجَه تحت عنوان الحذف الذي هو مبحث من مباحث تأطير السياق على مستوى التركيب

يقف الرازي عند هذا النّوع من الحذف، فيعتمد السياق الصرفي في تقدير الحرف المحذوف ، ذلك أنّ من حروف الزيادة في علم الصّرف (است) ، وهي تضاف مجموعة إلى الفعل ، ولا يحذف أحدها إلاّ لعلّة صوتية تتضح بإعمال السياق الصوتي، فيقول « قال: (فما اسطاعوا) فحذف التاء للخفة، لأن التاء قريبة المخرج من الطاء »([3]).

يعلل الرازي الحذف في هذا الموضع بتقارب مخارج الأصوات، وهو خبير في هذا العلم ، لذا نجده يعوّل عليه في كثير من المواضع .

حذفت التاء في قوله (فما اسطاعوا)، و لم تحذف في قوله (وما استطاعوا له نقبا)، ولو كان السرّ في الحذف كما قال الرازي لحذفت التاء في الموضعين. ولهذا يمكننا أن نقول بأن السياق لم يحذف التاء لتقارب مخارج الأصوات فحسب، بل حذفها لفائدة مقصودة وهي تناسب اللفظ مع الفعل ، و هذا ما يبينه الدكتور السامرائي في قوله : « فحذف التاء والأصل: (استطاعوا) ، ثم قال (وما استطاعوا له نقبا) بإبقاء التاء وذلك أنّه لّما كان صعود السدّ الذي هو سبيكة من قطع الحديد والنحاس أيسر من نقبه وأخفّ عملاً، خفف الفعل للعمل الخفيف ، فحذف التاء ، فقال : (فما اسطاعوا أن يظهروه) و طوّل الفعل فجاء بأطول بناء له للعمل الثقيل الطويل فقال : (وما اسطاعوا له نقبا) فحذف التاء في الصعود وجاء بها في النّقب » ([4]) .

---

[1])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 14 /ص 38 .
[2])- الكهف: 97.
[3])- المصدر نفسه،ج 21 / ص 172.
[4])- فاضل صالح السامرائي ، التعبير القرآني ، ص 85-86.

ومما يبدو أن السامرائي أضاف نوعا آخر من السياق لفهم دلالة حذف الحرف في هذه الآية ، وهو سياق المقام و تناسب اللفظ مع الفعل .

فحذفُ التاء في هذه الآية لم يكن مسألة صوتية صرفية فحسب، فإضافة إلى العلة الصوتية التي ذكرها الرازي ومعظم القدامى ــ رحمهم الله ــ هناك علة دلالية سياقية و هي تناسب اللفظ مع الفعل من حيث الخفة و الثقل .

ومن حذف الحرف أيضا ما جاء في قوله تعالى :﴿ **قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا** ﴾ ([1]).

يقول الرازي : « و قوله (نبغ) أصله : (نبغي) ، فحذفت الياء طلبا للتخفيف لدلالة الكسر عليه، وكان القياس أن لا يحذف، لأنهم إنما يحذفون الياء في الأسماء وهذا فعل إلاّ أنّه قد يجوز على ضعف القياس حذفها لأنها تحذف مع الساكن الذي يكون بعدها كقولك : ما نبغي اليوم؟ فلمّا حُذِفت مع الساكن حذفت أيضا مع غير الساكن » ([2]).

ومما نلاحظه في معظم تصريحات الرازي هو أن حذف الحرف من الكلمة يكون لعلة صوتية، صرفية لأجل التخفيف، وهو ما نلحظه عند معظم المفسرين القدامى ، في حين يرى بعض المفسرين المحدثين أنّ السر أبعد من أن يكون في الصوت فقط .

ففي قوله تعالى : ﴿ ...**إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾ ([3]) ، وقوله تعالى : ﴿...**الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ** ...﴾ ([4])، يذكر السامرائي أنّ سياق الآية هو الذي يفرض حذف الحرف أو ذكره. فيرى أن سياق آية البقرة ، وما فيها من خصومة و محاجة ومحاربة، يستدعي جانبا كبيرا من الخشية ، لذا أظهر الله نفسه طلبا لمراقبته و خشيته ، وعدم الاكتراث بأقوال المرجفين، في حين كان سياق الآية الثانية يختلف عن ذلك ، فهو يدور على ذكر المحرمات من الأطعمة ([5]).

---

[1])- الكهف: 64.
[2])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير، ج 21 / ص 147.
[3])- البقرة :150.
[4])- المائدة: 03.
[5])- ينظر: فاضل صالح السامرائي، التعبير القرآني ، ص 99.

د – حذف الجملة :

قد يحذف السياق الجملة في السلسلة الكلامية قصد الإيجاز و الاختصار. و يذكر الزركشي ذلك في موضع حذف الأجوبة ، فيقول : « و حذف الجواب يقع في مواقع التفخيم و التعظيم ، و يجوز حذفه لعلم المخاطب به ؛ و إنما يحذف لقصد المبالغة لأن السامع مع أقصى تخيله يذهب منه الذهن كل مذهب، ولو صرّح بالجواب لوقف الذهن عند المُصرَّح به فلا يكون له ذلك الوقع ، ومن ثَمّ لا يحسُن تقدير الجواب مخصوصا إلاّ بعد العلم بالسياق ... » ([1]) .

ومن حذف الجواب ما جاء في قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ ([2]).

في هذه الآية حذفٌ لجواب الشرط . والرازي في هذا الموضع يعوّل على سياق المقام وسياق الآية في تقديره للمحذوف, واستنباطه لعلّة الحذف فيقول: « (ولو ترى) يقتضي له جوابا وقد حذف تفخيما للأمر, وتعظيما للشأن, وجاز حذفه لعلم المخاطب به, وأشباهه كثيرة في القرآن والشعر . ولو قدّرت الجواب , كان التقدير : لرأيت سوء منقلبهم ,أو لرأيت سوء حالهم , وحذف الجواب في هذه الأشياء أبلغ في المعنى من إظهاره ، ألا ترى أنّك لو قلت لغلامك: والله لئن قمتُ إليك، وسكتّ عن الجواب، ذهب بفكره إلى أنواع المكروه، من الضرب والقتل ، و الكسر وعَظُمَ الخوف و لم يدر أيّ الأقسام تبغي. ولو قلتَ و الله لئن قمتُ إليك لأضربنّك فأتيت بالجواب، لعلم أنّك لم تبلغ شيئا غير الضرب، ولن يخطر بباله نوع من المكروه سواه ، فثبت أن حذف الجواب أقوى تأثيرا في حصول الخوف » ([3]).

يبدو أنّ الرازي هنا يستنبط قيمة الحذف من خلال مقارنته بالذكر، فيظهر محاسن الحذف وما يثيره في نفس المتلقي، ويبيّن عدم وجودها مع الذكر، وكان يذكر هذا في كثير من المواضع .

وقد يستدعي السياق حذف الجواب للدلالة على التعظيم و التهويل،كما في قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا**

---

[1])- بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، البرهان في علوم القرآن، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، ج : 03 / ص : 183.

[2])- الأنعام: 27.

[3])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 12 / ص 190.

إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ ([1]) ، يقول الرازي : « و اعلم أنّ جواب (لو) محذوف والتقدير: لكان خيرا لهم وأعْوَدُ عليهم ؛ وذلك لأنّه غلب عليهم النفاق و لم يحضر الإيمان في قلوبهم ... وترك الجواب في هذا المعرض أدلّ على التعظيم و التهويل » ([2]).

[1])- التوبة 59
[2])- الرازي ، التفسير الكبير ، ج : 16 / ص : 98-99.

03 – أسلوب الاستفهام :

تناول علماء التفسير الأساليب التعبيرية ، الخبرية منها و الإنشائية ، وما تُخرج لها من معاني غير معانيها الأصلية التي وضعت لها . وسنحاول ـــ من خلال التفسير الكبير ـــ الوقوف عند أسلوب من بعض الأساليب الإنشائية، وما أنتجه من معاني يقتضيها السياق الذي حلّ فيه، وهو أسلوب الاستفهام.

أ – المفهوم الاصطلاحي للاستفهام :

الاستفهام نمط تركيبي من الجمل الإنشائية الطلبية، فهو طلب العلم عن شيء لم يكن معلوما أصلا . أي أنه « استخبار و طلب من المخاطب أن يُخبر أو يُفهم عن شيء لم يكن معلوما ، بأداة خاصة » ([1]). و يكون الاستفهام بأداة من الأدوات الآتية: الهمزة ، و هل وما ، و من ، و أيّ ، وكم ، و كيف ، وأين ، و أنّى و متى ، و أيّان ([2]) .

ورد الاستفهام في القرآن على أصل معناه ، و هو طلب الفهم و معرفة المجهول كما في قوله تعالى:﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا** ...﴾([3])، وقوله: ﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ ([4]) و قوله : ﴿ **إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾([5])، و هذا الاستعمال كثير في القرآن،و أكثر منه أن يخرج الاستفهام عن أصل وضعه لمعان أخرى تفهم من سياق الكلام ([6]) .

ووقف الرازي عند كثير من قضايا الاستفهام في القرآن الكريم، وتناولها بالشرح و التوضيح الدقيق. فقد تحدث عن أثر الاستفهام و فائدته في الكلام، و استنبط المعاني والأسرار البلاغية التي يخرج إليها الاستفهام، و سمّاها معاني مجازية.

ب – أثر الاستفهام في الكلام :

للرازي عبارات في تفسيره الكبير ، تبين قيمة الاستفهام ، و أثره في أداء المعنى وتثبيته في النفس .

---

[1])- مروان محمد سعيد عبد الرحمن ، دراسة أسلوبية في سورة الكهف ، أطروحة ماجستير ، ص 114 ، نقلا عن الجرجاني .
[2])- ينظر: الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، شرح وتعليق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، منشورات دار الكتاب اللبناني ، الطبعة الثالثة 1391هـ- 1971م ، ج : 1 / ص : 277.
[3])- الأعراف: 187.
[4])- الشعراء: 23.
[5])- المائدة: 112.
[6])- ينظر: أحمد أحمد بدوي ، من بلاغة القرآن ، ص 126.

فعند قوله تعالى : ﴿ **قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ** ﴾([1]) ، يقول الرازي : « ما الفائدة من ذكر هذه الجملة على سبيل السؤال و الاستفهام ؟ والجواب: إنّ الكلام إذا كان ظاهرا جليّا ، ثمّ ذكر على سبيل الاستفهام و تفويض إلى المسؤول كان ذلك أوقع في القلب » ([2]).

و يذكر أن أسلوب الاستفهام أبلغ في أداء المعنى ، فالاستفهام الذي يفيد النفي أبلغ من أسلوب النفي ذاته، وركّز الرازي في كلامه على بيان الدلالات النفسية التي يشيعها الاستفهام في الكلام ، ويقارنها بدلالات غيره من الأساليب الإنشائية الأخرى ، كالنهي مثلا، ففي قوله تعالى :﴿ **أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ** ﴾ ([3])، يقول الرازي : « ذِكرُه عن طريق الاستفهام فيه معنى وضوح الأمر و ذلك أنّ من أخبر عن شيء فقال مثلا : لا أتخذ، يصحّ من السامع أن يقول له : لِم لا تتخذ ، فيسأله عن السبب ، فإذا قال : (أأتخذُ) يكون كلامه أنه مستغن عن بيان السبب الذي يطالب به عند الإخبار» ([4]).

إن سياق التوحيد في هذه الآية ينتخب أسلوب الاستفهام، ويفضّله على غيره من الأساليب الأخرى ، لأن قوله : (أأتخذ من دونه آلهة) إشارة إلى نفي غير الله وتحقيق معنى لا إله إلاّ الله ، ووُظف الاستفهام لغرض تجنب الجدال و النقاش ، لأن الكلام في التوحيد يستوجب ذلك .

و أشار الرازي إلى فائدة الاستفهام كذلك في قوله تعالى : ﴿ **أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ** ﴾([5]) ، فقال : « و قد تقدم أن النّفي بطريق الاستفهام أبلغ ؛ لأن من قال : ما أنزل عليه الذكر ربّما يعلم أو يظنّ أو يتوهم أن السامع يكذبه فيه ، فإذا ذكر بطريق الاستفهام يكون معناه أن السامع يجيبني بقوله: ما أنزل، فيجعل الأمر حينئذٍ منفيا ظاهرا لا يخفى على أحد، بل كل أحد يقول ما أنزل » ([6]).

---

[1])- يونس 34
[2])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 17 / ص 88-89.
[3])- يس : 23.
[4])- المصدر نفسه ، ج 26 / ص 57.
[5])- القمر :25.
[6])- المصدر نفسه ، ج 29 / ص 50.

وقد يأتي الاستفهام في السياق بدلا من جملة الخبر و ما تفيده من معاني ، و يحاول الـــرازي في هذا السيـــاق أن يتتبع حركة النفس و هي تتلقـــى هذا الأسلوب، فيذكـــر ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ** ﴾([1]) ، ويقول: « قوله (ما أصحاب الميمنة) جملة استفهامية على معنى التعجب.كما تقول لمدّعي العلم: ما معنى كذا ؟ مستفهما، ممتحـــنا زاعـــما أنه لا يعرف الجواب، حتى إنّـــك تحب و تشتهي ألاّ يجيب عـــن سؤالك ، و لو أجاب لكرهته ؛ لأن كلامك مفهوم ، كأنك تقول إنّك لا تعرف الجواب » ([2]).

ج – أثر السياق في استنباط المعاني البلاغية التي يفيدها الاستفهام :

تناول الرازي أسلوب الاستفهام في كثير من آيـــات القرآن الكريم ، وكشف عـــن المعاني التي خرج إليها الاستفهام ، وبيّنَ أنّ إفادة الاستفهام لهذه المعاني إنّما هي عن طريق المجاز .

قال تعالى : ﴿ ...**سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾([3]) .

يقول الرازي في تفسيره لهذه الآية: « قال صاحب الكشاف : (الهمزة) و (أم) مجردتان لمعنى الاستفهام، وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأسا، قال سيبويه : جـــرى هذا على حرف الاستفهام كما جرى على حرف النداء كقوله : اللهمّ اغفر لنا أيّتها العصابة يعني أنّ هذا جرى على صورة الاستفهام و لا استفهام ، كمـــا جرى على صورة النداء و لا نداء » ([4]).

ومن المعاني المجازية التي أفادها الاستفهام في السياق القرآني ما يلي:

النّهي:

يعوّل الرازي على السياق النصي، وعلى تعلّق الآيات ببعضها البعض في فهم معنى الاستفهام والغاية من توظيفه ، ويظهر لنا ذلك في تفسيره لقوله تعالى: ﴿... **فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ** ﴾ ([5]). حيث يقول : « و اعلـــم أنّ هذا وإن كان استفهـــاما في الظاهر ، إلاّ أنّ المراد منـــه هو النهـــي في الحقيقة، وإنما حسُن هذا المجاز؛ لأنه تعالى ذمّ هذه الأفعال وأظهـــر قبحها للمخـــاطب، فلمّا استفهم بعد ذلك عن تركها لم يقدر المخاطب إلاّ على الإقرار بالترك ، فكأنه قيل له : أتفعله بعد ما قد ظهر من قبحه ما قد ظهر» ([6]).

---

[1])- الواقعة: 08.
[2])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 29 / ص 144.
[3])- البقرة : 06.
[4])- المصدر نفسه، ج 02 / ص 42.
[5])- المائدة: 91 .
[6])- المصدر نفسه، ج 12 / ص 81.

نلاحظ أن الرازي لم يستنبط معنى الاستفهام بمعزل عن السياق , إنما نراه يعود إلى الكلام الذي جاء قبل الاستفهام ، ثمّ يقف عند العلاقة بينه وبين أسلوب الاستفهام فيظهر له المعنى و تتضح له الغاية من توظيف هذا الأسلوب .

الإنكار:

ذكر الرازي للاستفهام معنى الإنكار في مواضع متعددة ، منها ما أورده في تفسيره لقوله تعالى:﴿...**قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ** ...﴾ ([1])، و لقوله: ﴿ **أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾([2]).

يقول الرازي في تفسيره للآية الأولى : « ليس باستفهام بل هو إنكار... » ([3])، و يقول في الآية الثانية : « المقصود من هذا الاستفهام ، الإنكار وإعظام ما يقدمون عليه لأنّ مثل ذلك إذا قيل بهذا الفظ كان أبلغ في التنكير و التبكيت » ([4]).

يخرج الاستفهام في هذا الموضع إلى معنى الإنكار بواسطة السياق النصي، فالاستفهام هنا جاء بعد حديث في أولئك القوم و نقضهم العهود و المواثيق . و الرازي في هذه الآية يربط الاستفهام بما تقدمه من كلام ليستنبط المعنى الذي أراده السياق .

التقرير :

و أفاد السياق ــ أيضا ــ معنى التقرير في مواضع مختلفة في القرآن الكريم، منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿ **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ** ﴾ ([5]).

ورد هذا الاستفهام في سياق الكلام عن الذين في قلوبهم مرض، و الذين قالوا: كيف نقاتل و القتال إفساد ؟ وكيف نقاتل العرب وهم من ذوي أرحامنا ؟ والرازي يعوّل على هذا السياق الذي جاء فيه الأسلوب، وعلى معرفته لحال المخاطب ليفهم معنى التقرير، فيقول :« الاستفهام للتقرير المؤكد ، فإنه لو قال على سبيل الإخبار (عسيتم إن توليتم) لكان للمخاطب أن ينكره فإذا قال بصيغة الاستفهام،كأنه يقول: أنا أسألك عن هذا وأنت لا تقدر أن تجيب إلاّ بلا أو نعم فهو مقرر عندك و عندي » ([6]).

---

[1])- البقرة: 80.
[2])- البقرة : 100.
[3])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 03 / ص 142.
[4])- المصدر نفسه ،ج 03 / ص 200.
[5])- محمد: 22.
[6])- المصدر نفسه ، ج 28 / ص 64.

فهؤلاء الذين تولّوا عن القتال تركاً للإفساد ، وقطع الأرحام ، هم الذين يقطعون الأرحام ، و يئِدون البنات، ويقاتلون على أدنى شيء كما كانت عادة العرب .

و قد يكون الاستفهام في معرض التقرير ليفيد الأمر، و من ذلك قوله تعالى : ﴿... **وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا** ...﴾ ([1]).

كثيرا ما يعوّل الرازي على السياق النّصي، وينظر إلى ما سبق أو لحق الأسلوب سواء كان في الآية نفسها أو في غيرها ليفهم معنى الاستفهام . و الاستفهام في هذا الموضع جاء بعد جملة من الحجج و البراهين ، منها قوله تعالى: ﴿ الحي القيوم ﴾ الدالّ على الألوهية، وقوله: ﴿ نزّل عليك الكتاب بالحق ﴾ الدّال على صحة النبوة ، كما جاء الأسلوب بعد ذكر بعض المعجزات التي شاهدوها كالذي حدث يوم بدر ، وذلك في قوله تعالى :﴿ قد كان لكم آية في فئتين التقتا ﴾ ، وغيرها من الحجج .

و الرازي ــ قبل استنباطه معنى الاستفهام ــ بسط كلّ الحجج و البراهين التي سبقت الاستفهام ([2]) ، ثمّ ذكر معنى الاستفهام فقال :« قال تعالى: (أأسلمتم) فهو استفهام في معرض التقرير ، و المقصود منه الأمر ، قال النحويون : إنّما جاء بالأمر في صورة الاستفهام ، لأنه بمنزلته في طلب الفعل والاستدعاء إليه، إلاّ أنّ في التعبير عن معنى الأمر بلفظ الاستفهام فائدة زائدة، و هي التعبير بكون المخاطب معاندا بعيدا عن الإنصاف لأنّ المنصف إذا ظهرت له الحجة لم يتوقف ، بل في الحال يقبل ، ونظيره قولك لمن لخّصت له المسألة في غاية التلخيص و الكشف و البيان : هل فهمتها ؟ فإنّ فيه الإشارة إلى كون المخاطب بليدا قليل الفهم » ([3]) .

يستعين الرازي بسياق الموقف ، و معرفة حال المخاطب كونه معاندا ، بعيدا عن الإنصاف ومعرفته لحال المخاطب كانت باعتماده على السياق النصّي، ذلك لأن الإكثار من الحجج و البراهين لا يكون إلاّ للمعاند أو القليل الفهم .

و يبدو أنّ الرازي قد اِتّبع الزمخشري في فهمه لهذا المعنى، فالزمخشري أيضا أشار إلى البيّنات و الحجج التي سبقت الاستفهام ، فقال: « (أأسلمتم) يعني أنه قد أتاكم من البينات ما يوجب

---

[1])- آل عمران: 20.
[2])- ينظر : فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 07 / ص 210.
[3])- المصدر نفسه،ج 07 / ص 213.

الإسلام ، ويقتضي حصوله لا محالة، فهل أسلمتم أم أنتم بعد ذلك على كفركم ؟ وهذا كقولك لمن لخصت له المسألة و لم تـُبْق من طرق البيان و الكشف طريقا إلا سلكته: هل فهمتها ؟» ([1]).

التعجب و التعظيم :

قد ينتخب السياق أسلوب الاستفهام لإفادة معنى التعجب كما في قوله تعالى:﴿ **وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا** ﴾ ([2]).

يقول الرازي عند تفسيره لهذه الآية: « كلمة تعجب ، أي لأيّ وجه ، ولأيّ معنى تفعلون هذا ؟ فإنها بذلت نفسها لك ، وجعلت ذاتها لذاتك و تمتعك ، وحصلت الألفة التّامة ، والمودّة الكاملة بينكما ، فكيف يليق بالعاقل أن يستردّ منها شيئا بذله لها بطيبة نفسه ؟ إنّ هذا لا يليق البتة بمن له طبع سليم وذوق مستقيم » ([3]).

يذكر الرازي لهذا الاستفهام معنى التعجب و التعظيم لهذا الفعل ، إلاّ أنّه يمكننا أن نستنبط من قوله الرازي: « إنّ هذا لا يليق البتة » معنى النّهي ، لأنّ التعجب من عظمة قبح الفعل يستوجب تركه وعدم القيام به. والنهي واضح في الآية التي قبلها في قوله تعالى: ﴿ ... **فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا**...﴾ ([4]).

ويستدلّ ابن عطية بقوله تعالى : ﴿...**وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ**... ﴾ ([5]) ، ليذكر معنى النهي لهذا الاستفهام ([6]).

و الحقيقة أنه لا يمكن الاكتفاء بذكر معنى التعجب فقط ، لأنّ التعجب بالاستفهام يكون لمعنى مقصود ، فالتعجب من عظمة قبح الفعل يستوجب النهي أو التوبيخ و التعجب من عظمة حسن الفعل يستوجب الأمر ، والتعجب من عظمة الله سبحانه وتعالى يقتضي الامتثال و الانقياد و الخضوع لأوامره .

ففي قوله تعالى : ﴿ **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ ([7])، يورد ابن عطيّة معنى التعجب و التوبيخ ([8]) .

---

[1])- أبو القاسم الزمخشري ، الكشاف ، ج 01 / ص 419.
[2])- النساء :21.
[3])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 10 / ص 16.
[4])- النساء: 20.
[5])- البقرة :229.
[6])- ينظر: أبو محمد عبد الحق بن عطيّة ، المحرر الوجيز ، ج 02 / ص 30.
[7])- البقرة : 28.
[8])- ينظر: المصدر نفسه، ج 01 / ص 113-114.

و يذكر الرازي أيضـــا معنى التوبيخ بلسان المعتزلة ([1]). وهذا يعني أنّ ذكر معنى التعجب وحده لا يكفـــي، لأن التعجب يفيد معنى معينا ، وهو المعنى المقصود.

و بناء على ما سبق يمكننا القول أن للسياق أثر في اختيار أساليب التعبير المناسبة، فهو يختار الاستفهام ليدلّ على الأمر أو النهي ، أو النفي ،أو التوبيخ وغيرها من المعاني . ويكون الاستفهام أبلغ في دلالته على هذه المعاني من أيّ أسلوب آخر.

وإنـــّما يخرج الاستفهام إلى هذه المعاني المجازية بواسطة السياق النـــّصي ، أو بواسطة سياق الموقف بما يشمله من متكلم ومخاطب .

[1])- ينظر : فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 02 / ص 150.

الفصل الثالث

تأطير السياق على مستوى السورة

01- علاقة الفواتح بالمقاصد.

02- أثر السياق في فهم دلالة الفواصل و الخواتم.

03- التكرار.

04- الربط بين الآيـــة و الآيـــة.

توطئـــــــــــة:

اهتم البلاغيون بكلّ ما من شأنه أن يُحدث في الكلام ترابطا، لأن الكـــلام الجيد مبنيّ على هذا الترابط ، فيرتبط بعضه ببعض ، و يدلّ أوله على آخره ، فالتفتوا إلى المزايا و الخصائص التي تحملها لغة الآخِر فتشدّه إلى الأوّل .

و اهتم الفخر بالسورة فكان يقف عند وحداتها ، أو العناصر المكونة لها ، ثمّ يبيـــّن ما بين هذه العناصر من تمازج و ترابط ، و إن تباعدت في أماكنها و ترتيبها داخل نظم السورة ، والتي تتكون من ثلاث وحدات و هي : الفواتح ، الخواتم و الوسط .

و الذي يعنيـــنا في هـــذا الفصل هو عناية الرازي بتقسيم السورة إلى الوحدات المذكورة سابقا، و الوقوف عندها مبينا مدى تفاعلها ،و تعلقها ببعضها البعض .لأن استقـــرار أيّ عنصر بدلالته لا يعني انقطاعه عن السورة ، و عن المقاصد و الأغراض المجاورة ، لأن معرفة بناء السورة و تعانق أجزائها و عناصرها لا يكون إلا بعد معرفة موقع كل جزء بنفسه ثم موقعه في غيره.

و الفاتحة – عند الرازي- قد تطول أو تقصر، فتكون آية واحدة ، أو آيتين ، و قد تطـــول إلى أكثر من عشر آيات ، و الكلام نفسه نجده في نظرة الرازي للخاتمة فهي الأخرى تكون قصيرة أو طويلة ، و قد تختصر إلى أن تصير فاصلة الآية الأخيرة هي الخاتمة للسورة كلها.

و سنحاول تبيان اهتمام الرازي بوحدات السورة من خلال ذكر آرائه و هو يفسّر أوائـــل و أواخر السوّر في القرآن الكريم.

01 – علاقة الفواتح بالمقاصد :

تنبّه الرازي إلـــى العلاقة التي تصـــل أطراف الكلام في سياقاته المتباعدة و أغراضه المختلفة بالمقاصد و المعاني التي في وسطه.

و يلتقي الإمام مع عبد القاهر الجرجاني في أنّ الإعجاز يكون في النّظم و الترتيب ، وذلك بتشابك اللفظ مع ما قبله و ما بعده ، ليفتح بابا جديدا تُستنبَط منه معان كثيرة. و بما أنّ السياق هو تعانق الكلمات و التراكيب مع بعضها البعض، فإننا نحاول عرض بعض آراء الـــرازي وهـــو يعمل لإبراز العلاقة بين فواتح السور وأغراضها ومقاصدها التي في وسطها.

سورة الأنفال :

قد تكون جملة الافتتاح خلاصة لشرح و تفصيـــل واردٍ في الجمل الموالية لها .كـــما ورد في سورة الأنفال، في قوله تعالـــى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُـــوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُـــوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .إِنَّمَا الْمُؤْمِنُـــونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِـــرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُـــهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴾([1]).

يقول الرازي:« اعلم أنه تعالى لمّا قال (و أطيعوا الله و رسوله إن كنتم مؤمنين)، واقتضى ذلك كـــون الإيمان مستلزما للطاعـــة، شرح ذلك في هـــذه الآية مزيد شرح وتفصيل ، و بيّن أن الإيمان لا يحصل إلا عند حصول هذه الطاعات »([2]).

سورة الحج :

و في قوله تعالى:﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ** ﴾([3]) .

يقول الرازي :«واعلم أنه سبحانه و تعالى ذكر من أهوال ذلك اليوم أمورا ثلاثة...» ([4]).

و معنى هذا أنّ قوله تـــعالى :﴿ **إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّـــاعَةِ شَيْءٌ عَظِيـــمٌ** ﴾ ، له علاقة بالآية التي بعده ، والتي تعتبر من وسط السورة ، وهو كذلك خلاصة لشرح و تفصيل جـــاء بعده ، وهو

---

[1])- الأنفال : 01- 04 .
[2])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 15 / ص 117.
[3])- الحج : 01 – 02 .
[4])- المصدر نفسه ، ج 23 / ص 04 .

ذِكْرُه لأمور ثلاثة ، وهي : ذهول المرضعة ، ثمّ إسقاطها ولدَها لتمام، أو لغير تمـــام ، ثم ذكـــره بعدها قوله : (وترى الناس سكارى) .

وفي قوله تعالى :﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيـــدٍ. كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ** ﴾ ([1]). يقول الرازي : « أخبر تعالى فيما تقـــدّم عن أهوال يوم القيامة وشدتها، و دعا الناس إلى تقوى الله ، ثم بيّن في هـــذه الآية قوما من الناس الذين ذُكِروا في الأول ، و أخبر عن مجادلتهم » ([2]).

و يشير الرازي بقوله هذا إلى تناسب وسط السورة مع أولها ، فهو في هذه الآية يصف فئة من الناس ، قد ذكروا في أول السورة ، في حديثه عن أهوال يوم القيامة.

سورة المؤمنون:

يكـــون التناسب بين الفواتح و المقاصد بأن تكون الآية في الوسط مؤكِّدةً للافتتاح، و نجد هذا في سورة المؤمنون ، في قوله تعالى :﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِـــهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ. أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ . الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ** ﴾ ([3]).

تبدو لنا علاقة الفاتحة بوسط السورة و مقصده جليـــةً في هذه السورة . و يوضح الرازي ذلك، حيث يرى أن آيات الافتتاح في هذه السورة جاءت في حديث الأمر بالعبادات، والاشتغال بعبادة الله لا يكون إلاّ بعد معرفة المعبود، ولذلك ذكر الله سبحانه وتعالـــى ما يدلّ على و جوده ووحدانيته. و ذلك بذكر بعض آياته في الخلق كخلقه للإنسان، و خلقه ليوم القيامة([4]).

---

[1])- الحج : 03 – 04 .
[2])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 23 / ص 05.
[3])- المؤمنون : 01 – 16 .
[4])- المصدر نفسه ، ج 23/ ص 83 – 84 .

سورة النساء :

يواصـــل الرازي تتبعه للفواتح ليستوعب جميع مكونات السورة ومعانيها، فوقف عند جملة المطلع في سورة النساء، وحلّل عناصرها بغرض معرفة ما يندرج تحتها من مقاصد أُنجزت في وسط السورة .

قال تعالى :﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُـــمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ﴾ ([1]).

في هذه السورة يقف الرازي عند قوله: (اتقوا ربكم) ، و يعتبـــره العلّة في ذكر التكاليف المذكورة بعده . فهو يرى أن السورة تشتمل على أنـــواع كثيرة من التكاليف ، و منها التعطف على النساء و الأولاد و الأيتـــام ، و الرأفـــة بهم ، و إيصال حقوقهم إليهم . وتشتمل السورة على تكاليف أخرى في الطهارة و الصلاة و قتال المشركين ، و هي تكاليف شاقة تستوجب علّة قوية لحملها . ويبيـــّن الرازي هـــذا في قوله : « و لمّا كانت هذه التكاليف شاقة على النفوس لثقلها على الطباع، لا جرم افتتح السورة بالعلة التي لأجلها يجب حمل هذه التكاليف الشاقة، وهو تقوى الرّب الذي خلقنا، و الإله الذي أوجدنا »([2]).

و بناء على ما سبق يمكن القول بأن الفاتحة في هذه السورة علة لجميع أغراضها، و قُدّمت العلّة على المعلول لموجب بيانيّ، فابتدرهـــا بذكر تقوى الرّب، والامتنـــان و الإنعام تمهيدا لذكر التكاليف و الفرائض ، و هذا الأسلوب في غاية البلاغة و الجمال الفني . فلا أبلغ و لا أعظـــم من التذكير بالنشأة الأولى من العدم، والإنعام عليهم بأن جعلهم أمة واحدة، وجعل بينهم المودة و الرحمة ، مما يوجب الامتثال للتكاليف و الفرائض .

و يتتبع الـــرازي تفريعات المعاني داخل الســـورة و تولُّدها من جملة الافتتاح، و كيف بُنـــي بعضها على دلالته. فقوله تعالى :﴿ خلقكم من نفس واحدة ﴾ تضمنت كثيرا من المعاني الفرعية . فقد يدلّ على المعاد، لأنه لما كان قادرا على أن يخرج من صلب شخص واحد أشخاصا

[1])- النساء: 01 .
[2])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 09 / ص 157 .

مختلفين، و أن يخلق من قطرة من النطفة شخصا عجيب التركيب ، لطيف السورة، فهو قادر على إحياء الأموات و بعثهم و نشورهم ([1]).

و الحديث عن المعاد موجود في وسط السورة في قوله تعالى:﴿ **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا** ﴾ ([2]) وهذا دليل آخر على تناسب الفاتحة مع المعاني والأغراض التي في وسط السورة .

و قد يدل أيضا قوله : ﴿ خلقكم من نفس واحدة ﴾ على و جوب ترك المفاخرة و التكبّر، و إظهار التواضع و حسن الخُلق ، إذ لا يمكن للفرد أن يتعالى و يتكبّر على الآخرين إذا عرف أن الكل قد خلقوا من شخص واحد ([3]).

و يدل على معنى آخر يذكره الرازي في قوله: « الحاصل أن قوله (خلقكم) دليل على معرفة التوحيد ، و قوله (من نفس واحدة) دليل على معرفة النبوة » ([4]).

ومعنى هذا أنّ النبي عليه الصلاة و السلام كان أميّا ما قرأ كتابا، و لا تلمذ لأستاذ ، فلمّا أخبر بأن الخلق خلقوا من نفس واحدة، كان ذلك معجزا، لأن العقل لا دليل فيه على أن الخلق يجب أن يكونوا مخلوقين من نفس واحدة، و إنما كان يعرف ذلك من الدلائل السمعية.

و أورَد الرازي تحليلا ذكيا في قوله : (يا أيّها الناس اتقوا ربكم) ، حيث رأى أنّه يدل على المبدأ، فقال: « أنه تعالى جعل هذا المطلع لسورتين في القرآن، إحداهما هذه السورة ، و هي الرابعة من النصف الأول من القرآن .و الثانية سورة الحج، وهي أيضا السورة الرابعة من النصف الثاني من القرآن، ثم إنه تعالى علل الأمر بالتقوى في هذه السورة بما يدل على المبدأ، وهو أنه تعالى خلق الخلق من نفس واحدة ... و علل الأمر بالتقوى في سورة الحج بما يدل على كمال معرفة المعاد، و هو قوله:(إن زلزلة الساعة شيء عظيم)، فجعل صدر هاتين السورتين دلالة على معرفة المبدأ و المعاد ، ثم قدّمَ السورة الدالة على المبدأ على السورة الدالة على المعاد و تحت هذا البحث أسرار كثيرة»([5]).

[1])- ينظر فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير، ج 09 / ص 160 .
[2])- النساء : 87 .
[3])- ينظر: المصدر نفسه ، ج 09 / ص 160.
[4])- المصدر نفسه ، ج 09 / ص 160.
[5])- المصدر نفسه ، ج 09 / ص 158.

سورة آل عمران:

قد عمل الرازي بسياق السورة للكشف عن المعاني المتفرعة من الافتتاح لأن الأغـــراض – عنده– و المقاصد إنّما تنسلّ داخـــل السورة من أصولها في الافتتاح .و كشف الرازي عن طريق اشتغاله بسياق السورة عن العمق الدلالي لبناء جملة الافتتاح و اتساعه ليشمل جميع المقاصد و الأغراض وسط السورة ، و عوّل في استثارته للمعاني على حســـن الترتيب ، لأنه المنظم لبناء المعاني، و تفريع بعضها من بعض. و في هذا نورد رأي الرازي في مطلع سورة آل عمران.

قال تعالى:﴿ **الم .اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ . نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ** ﴾ ([1])

يقول الفخر في هذه الآية: « اِعلم أنّ مطلع هذه السورة له نظم لطيف عجيب، وذلك لأن أولئك النصارى الذين نازعوا رسول الله صلى الله عليه وسلّم كأنه قيل لهم : إما أن تنازعوه في معرفة الإله، أو في معرفة النبوة، فإن كان النزاع في معرفة الإله و هو أنّكم تثبتون له و لدا، وإن محمدا لا يثبت له ولدا، فالحق معه بالدلائل العقلية و القطعية، فإنه قد ثبت بالبرهان أنه حيّ قيوم و الحيّ القيوم يستحيل عقلا أن يكون له ولدا، و إن كان النزاع في النبوة فهذا أيضا باطل، لأنّ بالطريق الذي عرفتم أن الله تعالى أنزل التوراة والإنجيل على موسى وعيسى، فهو بعينه قائم في محمد صلى الله عليه وسلم وما ذاك إلا بالمعجزة، وهو حاصل هاهنا» ([2]).

إن في مطلع هذه الســـورة دلالة على معـــرفة الإله ومعرفـــة النبوة ، ويتناسب هذا المعنى مع مواضيع السورة وأغراضها التي لا تخرج إثبات التوحيد و النبوة .

و تحليل الرازي دقيق في كون المطلع دليل على معرفة الإله ، ذلك أنه لما ثبت أن الإله يجب أن يكون حيا قيوما ، و أنه موجود لذاته ، و أن عيسى مـــا كان حيا قيوما ، فإنه يقتضي الجزم بأن لا إله إلا الله ، و ما كان عيسى إلها أبدا. فكلمة (الحي القيوم) جامعة لجميع الأدلة التي تبطل قول النصارى .

و يرى الرازي أنّ ما يتعلق بالنبوة ذكره الله في غاية الحسن و نهاية الجـــودة، و دليله على معرفة النبوة هو قوله تعلى: ﴿ نزّل عليك الكتاب بالحقّ ﴾ ، وقد عرف النصـــارى من قبل أنّ التوراة و الإنجيل كتابان إلهيان .و لما نَزَل القرآن كـــان من الواجب على النّصارى الإيمان به كما

[1])- آل عمران : 01- 03 .
[2])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 07 / ص 155 – 156 .

آمنوا بالتوراة و الإنجيل . ذلك أن الواجب إما تصديق الكلّ ، أو تكذيب الكـــل. وهـــذا دليل على أنه لا يوجد كلام أكثر فائدة و لا أحسن ترتيبا من هذا الكلام .

إن إجراء الافتتاح على تقرير الألوهية أمر معتبر تناط به مقاصد السورة فهما الرابط الناظم لمختلف الأغراض و المقاصد ، فكل المعاني التي داخل السورة لا يمكنها أن تخرج عن سيطرة المعنى الأصلي الذي في الافتتاح . فهي تحتكم إليه في حركتها و تحولاتها.

ويرى الرازي أن مطلـــع هذه السورة ابتدأ بذكر كتاب الله علـــى أنه تنـــزيل من ربّ العالمين، و أنه مشتمل على الحق و الصدق ، الأمـــر الذي يوجب الاشتغال بعبادة الله تعالى على سبيل الإخلاص .

سورة الزمر:

ويوضح الرازي وجود التناسب بين المطلع و الوسط في سورة الزُّمر ، فيذكر أنها خطاب للمشركين ، يبطل الله فيها معتقداتهم في اتخاذهم الأصنام آلهـــة من دون الله مع علمهـــم بنقصها و عجزها، وكمال الله. فجاء المطلع على تقرير الألوهية كالذي جاء في سورة آل عمران.ثم يذكر بعدها ما يدل على وحدانيته .

يقول الفخر في تفسيره لقوله تعالى:﴿ **خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُـــوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ. إِنْ تَكْفُـــرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُـــمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ : « اعلم أن الآية المتقدمة * دلّت على أنه تعالى بيّن كونه مترها عن الولد بكونه إلها واحد و قهارا غالبا ،أي كامل القدرة، فلمّا بنى تلك المسألـــة على هذه الأصول ذكر عقبها على ما يدل علـــى كمال القدرة، وعلى كمـــال الاستغناء،وأيضا فإنه تعـــالى طعن في إلـــهية الأصنام،فذكر عقبها الصفات التي باعتبارها تحصل الإلـــهية » ([1]).

ونلمس في مطلع سورة الزمـــر أسلوبا غاضبا في الحديث عن الألوهيـــة التي أبيـــحت لغير الله، ثّـــم نجده أشد غضبا في وسط السورة ، في قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ**

*)- يقصد بالآية المتقدمة قوله تعالى :« لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» الزمر(5).

[1])- الرازي : التفسير الكبير ، ج : 26 / ص 243 .

مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾([1])، وفي قوله : ﴿**فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾**([2]).

إن أهمّ هذه المعاني التي ذكرناها كالألوهية و النّبوة و المبدأ و المعاد و الاشتغال بالعبادة هي المعاني التي تدور في القرآن كله، وليس في السورة فحسب، وأن الأصل في هذه المعاني هو التوحيد لأن منه تنسلّ المعاني الأخرى، كالنبوة والمعاد.

و يظهر لنا تفطن الرازي بفكرة السياق ـــ و إن لم يصرّح بها ـــ في وقوفه عند الأغراض الفرعية داخل السورة و بيان علاقتها بأصولها في الافتتاح، ثم نـــراه يحرك قرينة السياق لاستنباط دلالتها من هذه الأصول . وهو يرى أن المقصد الأقصى من هذا الكتـــاب إثبات الأصول الأربعة والتي هي : الألوهية، و المعاد ، النبوة ، والقضاء والقدر.

سورة الصافات:

وفي قوله تعالى : ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ. وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آَلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ. بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ . إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ. وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مـــا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ ([3])، يستنبط الرازي معنىً تعود أصوله إلى الافتتاح ، وهو معنى التوحيد و النبوة ، فيقول : « وهذا تنبيه على أن القول بالتوحيد دين كل الأنبياء »([4]).

سورة النور :

وقد تنوعت دراسة الرازي للفواتح تبعا للتنوع في الجملة القرآنية ، فقد وقف عند الفاتحـــة وهي مهيـــئة و مجملة لأغراض السورة ، وذلك في سورة النور ، في قوله تعالى :﴿ **سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آَيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾([5]) .

في هذه الآية يبين الفخر القيمة الجمالية والدلالية للفاتحة، و يقسم وحداتها ببراعة، بحـــيث يُناسب كل وحدة من وحداتها غرضا من أغراض السورة. ويظهر ذلك في قوله:«إنه سبحانه ذكر في أوّل السورة أنواعا من الأحكام و الحدود، وفي آخرها دلائل التوحيد، فقوله : (و فرضنـــاها)

[1])- الزّمر : 65 .
[2])- الزمر : 26 .
[3])- الصافات : 35 - 40
[4])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 26 / ص 135 .
[5])- النور : 01.

إشارة إلى الأحكام التي بينها أولا ، ثم قوله (وأنزلنا فيها آيات بيّنات) إشارة إلى ما بين دلائل التوحيد ، والذي يؤكد هذا التأويل قوله : (لعلكم تذكرون) » ([1]).

و معنى هذا أن قوله: (وفرضناه) مناسب لما ذكر في أول السورة من حدود وأحكام وقوله: (وأنزلنا فيها آيات بيّنات) مناسب لما ذكر في آخر السورة من دلائل التوحيد.و هذا تناسب واضح بين وحدات الفاتحة و مقاصد السورة .

سورة المائدة :

وفي قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ** ﴾([2])، يقول الرازي:«اعلم أنه تعالى لمّا قرر بالآية الأولى على جميع المكلفين أنه يلزمهم الانقياد لجميع تكاليف الله تعالى ، و ذلك كالأصل الكليّ و القاعدة الجملية ، شرع بعد ذلك في ذكر التكاليف المفصلة »([3]) .

ويظهر لنا أنّ الجملة الأولى في هذه الآية أصل السورة و مبناها ، ففي قوله تعالى : (أوفوا بالعقود) ، يرى الرازي أنه يجب على العبد أن يقوم بكل التكاليف المذكورة في السورة ، التزاماً بالعقود ([4]).

سورة هود:

ويورد الرازي لطيفة أخرى في التناسب داخل مطلع سورة هود في قوله تعالى: ﴿ **الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آَيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾ ([5]) ، فيرى أنه حصل بين أوّل آية المطلع وبين آخرها نكتة لطيفة ، فيقول : « ...كأنه يقول أحكمت آياته من لدن حكيم ، وفصلت من لدن خبير عالم بكيفيات الأمور » ([6]).

وقد تكون علاقة الفاتحة بوسط السورة علاقة العلة بالمعلول ، وقد ذكرنا هذا المعنى فيما سبق . ويوضحه الرازي في قوله : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ليأمر الناس ألاّ يعبدوا إلاّ الله » ([7]).

---

[1])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير، ج 23 / ص 130.
[2])- المائدة : 01 .
[3])- المصدر نفسه ، ج 11 / ص 125 – 126 .
[4])- ينظر: المصدر نفسه ، ج 11/ ص 123.
[5])- هود : 01 .
[6])- المصدر نفسه ، ج 17 / ص 179 .
[7])- المصدر نفسه، ج 17 / ص 180.

فقد أنزل عليهـــم الكتاب وأحكمه وفصله ، ثم أمرهـــم بالطاعة والانقياد، كما حـــدث في سورة النساء، أن خلقهم من نفس واحدة، فيكون ذلك علة لأن يعبدوا الله و يمتثلوا لأوامره.

02 – أثر السياق في فهم دلالة الخواتم والفواصل:

لقد شاع مصطلح الخاتمة عند علمـــاء التفسير بأنه آخر السورة، والفاصلة بأنـــها آخـــر الآيـــة، و يسمي الرازي الفواصل في كثير من الأحيان بـــ (أواخر الآيات).

الفواصل :

و لقد اهتمّ الفخر بدراسة الفواصل اهتماما بالغاً ، فيرى أن القرآن الكريم يعْدل من لفظ إلى لفظ آخر ليس مراعاة للفاصلة فحسب، بل كان يحافظ على المعنى، و ربما يضيف معنـــى جديدا ، ويقف عند قوله تعالى : ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْـــعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** ﴾([1]) ، فيبين سبب الإفراد في قوله (الدّبر) ، فيقول :« ... أنّه قال: (يولّون الدّبر) ، و لم يقل: (يولّون الأدبار) ، و قال في موضع آخر: (يولّوكم الأدبار ثم لا ينصرون) ،و قال: (ولقد كانـــوا عاهدوا الله من قبل لا يولّون الأدبار)، و قال في موضع آخر : (فلا تولّوهم الأدبار) ... فقوله :(يولّون الدّبر) إفرادا إشارة إلى أنهم في التّولية كنفس واحدة، فلا يتخلّف أحد عن الجمع، ولا يثبت أحد للزحف،فهم كانوا في التّولية كدبر واحد » ([2]) . فالكلمة جاءت في الإفراد مراعاة لأواخر االكلمـــات، دون أن تخلّ بالمعنى،بل أضافت معنى آخر جديدا، و تصويراً بارعا لم يكن وهي في حالة الجمع.

والفخر هنا يربط بين حسن اللفظ و بين حسن المعنى، فكما أن القرآن يهتم بتوظيف اللفظ الحسن فإنه أيضا يهتمّ بأن لا يكون اهتمامه باللفظ على حساب المعنى. فهو يهتمّ باللفظ و المعنى معا ، وهذا يُـــعدُّ من الإعجاز القرآني.

و يبين الـــرازي الفرق بين مجيء صفـــة الموصوف الواحد مرة مؤنثـــة ، و أخـــرى مذكَّرة، مـــع مراعـــاة لأواخر الآيـــات. ففي قولـــه تعالى : ﴿ **تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ** ﴾ ([3])، و قوله تعالى : ﴿ **سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ** ﴾([4]) ، يبين الرازي سرّ التذكير في الآية الأولى ، والتأنيـــث في الآيـــة الثانية، فيقول :« و قال (نخل خاوية) ، و قال : (نخل منقعر) ، فحيث قال : (منقعر) كـــان المختار ذلك؛لأن المنقعر في حقيقة الأمر كالمفعول،لأنّه الذي ورد عليه القعر فهو مقعور، والخاوي

[1])- القمر : 45 .
[2])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 29 / ص 67 – 68 .
[3])- القمر : 20 .
[4])- الحاقة : 07 .

و الباسق فاعل، و معناه إخلاء ما هو مفعول من علامة التأنيث أولا. كما تقول امرأة كفيل، و امرأة كفيلة » ([1]). و يذكر القرطبي أن النخل من الجمع الذي يذكر و يؤنث ([2]).

و القرآن الكريم – في رأي الرازي – يأتي باللفظ المناسب للألفاظ السابقة و اللاحقة، فيراعي أواخر الآيات ، و يحافظ على المعنى ، بخلاف الشاعر الذي يختار اللفظ على المذهب الضعيف لأجل الوزن و القافية فقط ([3])، ذلك أنّ مراعاة الفواصل يحسُن بمراعاة المعنى.

و يردّ الرازي على من يرجع تقدّم لفظ على لفظ للمناسبة اللفظية . ويظهر ردّه في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ . وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النّورُ . وَلَا الظّلُّ وَلَا الْحَرُورُ** ﴾([4])،حيث يقول: « وفي مثل هذا يقول المفسرون أنّه لتواخي أواخر الآي. هو ضعيف لأنّ تواخي الأواخر راجع إلى السجع ، و معجزة القرآن في المعنى ، لا في مجرد اللفظ ، فالشاعر يُقدّم و يؤخر للسجع ، فيكون اللفظ حاملا له على تغيير المعنى . و أمّا القرآن فحكمة بالغة و المعنى فيه صحيح ، و اللفظ فصيح لا يقدّم و لا يؤخر اللفظ بلا معنى » ([5]).

إن الرازي يسمي مجيء اللفظ مراعيا للفاصلة دون المعنى سجعا، و هو عمل ينسبه الرازي إلى الشعراء ، و هو عيب يخلو القرآن منه . و لا عجب أن ينفي الرازي السجع في القرآن الكريم و هو أشعري؛ لأن الأشاعرة امتنعوا أن يقولوا في القرآن سجعا. ذلك أن السجع عندهم يقصد في نفسه ثم يحال عليه المعنى. أما الفواصل فهي تتبع المعنى ، و تكون مقصودة في نفسها و ما دام أن كلمة (الفواصل) تؤدي المعنى ، فلا حاجة إلى كلمة (السجع) .

و كثيرا ما رأينا الرازي يتغلغل في بواطن المعاني ليستخرج دقائق الفواصل ويبين صلتها بما قبلها، و هذا عمل لا نجده عند كثير من المفسرين إن لم نقل كلّهم.

ففي قوله تعالى : ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ ([6]) ، تناسبٌ بين فاصلة الآية و بين ما قبلها يوضحه الرازي في قوله : « ...أمّا قوله :(إنّك على كل شيء قدير) فهذا كالتأكيد لما تقدّم من كونه مالكا لإيتاء الملك و نزعه ، و الإعزاز و الإذلال » ([7]).

---

[1])- فخر الدين الرازي التفسير الكبير ، ج 29 / ص 47 .
[2])- أبو عبد اله محمد القرطبي ،الجامع لأحكام القرآن ، ج 17/ ص 89 .
[3])- ينظر: فخر الدين الرازي ، المصدر السابق ،ج 29 / ص 47 – 48 .
[4])- فاطر : 19 – 21 .
[5])- المصدر نفسه ، ج 26 / ص 17 .
[6])- آل عمران : 26 .
[7])- المصدر نفسه ، ج 08 / ص 09 .

و في قوله تعالى : ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآَتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ ([1])، يكشف عن دلالة قوله (بصير)، و التي جاءت مناسِبة لما قبلها. ويرى أن المراد من قوله (بصير) أنه عالم بكمية النفقات و كيفتها ، و الأمـــور الباعثة عليها ، و أنه تعالى مجازيها ، إن خيرا فخير ، و إن شرا فشرّ ([2]).

و العلاقة بين الفاصلة و مضمون الآية لا تبدو جلية إلاّ إذا أعملنا سياق الآية، و نظـــرنا إلى معانيها المتشابكة.

و قد لا تؤكّد الفاصلة معنى الآية كلّها،بل تؤكد معنى جزء منها،كما في قوله تعالى:﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ ([3])،فقوله: (و الله غفور رحيم) تأكيد لمعنى جزء من الآية ، و هو قوله تعالى: (و يغفر لكم) . و المعنى : كيف لا يفي بوعد المغفرة و أنه غفور رحيم ([4]).

و قد تأتي الفاصلة لتؤكد كلمة واحدة كما في قوله تعالى : ﴿ **وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** ﴾ ([5]). فقـــوله : (و هم لا يشعرون) تأكيد معنى قوله تعالى : (بغتة) ،كما يقول القائل : أتيته بغتة على غفلة بحيث لا يدري ([6]).

و هذا النوع من الفاصلة يدخل تحت ما يسمّـــى بالتذييل ، و التذييل عنـــد البلاغيين هو تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد ([7]). و نظيره في قوله تعالى: ﴿ **وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴾ ([8]).

وتتبع الرازي في دراسته للفاصلة مدى ارتباطها بما قبلهـــا. فيرى أنّ الفاصـــلة قد تكون مؤكدةً لمضمون الآية قبلها، و ربما لا تمتد دلالتها فلا تؤكد معنى الآية كلها، بل تؤكـــد معنى جزء منها ، و قد تؤكد معنى كلمة واحدة فقط ، وقد لا يكـــون ارتباطها بمعنى الآية التي وردت فيها ، و ترتبط بأوائل السورة.

---

[1])- البقرة : 265 .
[2])- يُنظر : فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 07 / ص 57.
[3])- الأنفال : 70 .
[4])- ينظر : المصدر نفسه ، ج 15 / ص 206 .
[5])- العنكبوت : 53 .
[6])- ينظر : الصدر نفسه ، ج 25 / ص 81 .
[7])- ينظر: الخطيب القز ويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، ج 01 / ص 307 .
[8])- الإسراء : 81 .

و معنى هذا أن الرازي كان يبحث عن دلالة الفاصلة وهي داخل سياقها الجزئي (سياق الآية) ، و الكلي (سياق السورة) ، فيكشف تناسبها مع المعاني التي تحتويها السورة ، ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿ **مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾([1]).

يبين الفخر ارتباط الفاصلة بأوائل السورة، لا بمعنى الآية الواردة فيها، فيقول:« قال: (و هو السميع العليم) ، و لم يذكر صفة غيرها كالعزيز الحكيم و غيرهما، و ذلك لأنه سبق القول في قوله : (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا) ، و سبق الفعل بقوله : (وهم لا يفتنون) ، و بقوله : (فليعلمنّ الله الذين صدقوا)، و بقوله: (أم حسب الذين يعملون السيئات). و لا شك أن القول يدرك بالسمع ، والعمل منه ما لا يدرك بالبصر و منه ما يدزك به كالقصود ، و العلم يشملهما ، و هو السميع يسمع ما قالوه ، و هو العليم يعلم من صدَّق فيما قال ممن كذب» ([2]).

و قد لا تمتد الفاصلة لترتبط بأوائل السورة. و لا ترتبط بمعنى الآية الواردة فيها. بل تتخطى الآية الواردة فيها، و لا تبلغ أوائل السورة ، فتبقى متصلة بالآية السابقة لها. كما في قوله تعالى :﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ . الْآَنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ ([3])

يبدوا لنا أن الفاصلة في هذه الآية تتناسب مع معنى الآية التي جاءت في سياقها، إلاّ أن الرازي يربطها بالآية التي سبقتها، فيقول: « و اعلم أنه تعالى ختم الآية بقوله: (و الله مع الصابرين) ، والمراد ما ذكره في الآية الأولى من قوله (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين). فبين في آخر الآية أن الله مع الصابرين. و المقصود أن العشرين لو صبروا و وقفوا فإن نصرتي معهم وتوفيقي مقارن لهم » ([4]) .

[1])- العنكبوت : 05 .
[2])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 25 / ص 31 .
[3])- الأنفال : 65 – 66 .
[4])- المصدر نفسه ، ج 15 / ص 196 .

إن لفظ الصبر ورد في الآيـــة التي جاءت فيها الفاصلة ، و ورد أيضـــا في الآية السابقة لها، وكان في الآية السابقة بجمع المذكر الســـالم (صابرون) . وجاء في الآيـــة الثانية اسما مؤنثا (صابرة) ، وفي الفاصلة جمعا مذكرا سالما. ومن الملاحظ أن الرازي ربط لفـــظ (الصابرين) في الفاصلة بلفظ (صابرون) في الآية الأولى ، ولم يربطه بلفظ (صابرة) في الآية الثانية .وربما ربطه بما يناسبه في هيئته ، أي : أنه ربط جمع المذكر السالم بجمع المذكر السالم .

و تنتقل دراسة الرازي للفاصـــلة من الوصف إلى المقارنة ، فنـــراه يقارن بين الفاصـــلة (يتفكرون) و (يعقلون) في قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ ([1]).

يقول الرازي : « واعلم أنه تعـــالى في أكثر الأمر حيث يذكر الدلائل الموجودة في العالم السفلي يذكر عقبها (أن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)، أو ما يقرب منه بحسب المعنى، والسبب فيه أن الفلاسفة يسندون حوادث العالم السفلي إلى الاختلافات الواقعة في الأشكال الكوكبية،فما لم تقم الدلالة على دفع هذا السؤال لا يتمّ المقصود ، فلهذا المعنى قال: (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكـــرون)، كأنه تعالـــى يقول : مجـــال الفكر باق بعـــد ، ولابدّ بعد هذا المقام من التفكر و التأمّل » ([2]).

ويبيـــن الرازي سرّ مجـــيء الفاصلـــة (يتفكرون) بنفس التعليل في صورة النحـــل في قوله تعـــالى : ﴿ **يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ ([3])

أمّـــا في تعليله للفاصلـــة (يعقلون) ، فيقول : « واعلم أنّ بذكر هذا الجواب قد تمـــّت الحجّة، فإن هذه الحوادث السفلية لابد لها مؤثر، وبينا أن ذلك المؤثر ليس هو الكواكب والأفلاك والطبائع، فعنـــد هذا يجب القطع بأن لابد من فاعـــل آخـــر سوى هذه الأشياء، وعندها يتمّ

[1])- الرعد : 03 – 04 .
[2])- فخر الدين الرازي ،التفسير الكبير ، ج 19 / ص 05.
[3])- النحل : 11 .

الدليل، ولا يبقى بعده للفكر مقام البتة، فلهذا السبب قال: ههنا (إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون) » ([1]).

وهو بذلك التعليل يجعل التفكير في سياق الآية التي يحتاج مضمونها إلى كثير من التأمّل، ويجعل التعقُّل في سياق الآيات التي تمت فيها الدلائل .

ولا يمكننا الجزم بهذا التعليل، لأنه إذا تأملنا لفظ (يعقلون) في القرآن الكريم ، نجده قد جاء أيضا في الآيات التي تدل على التأمل والتفكير فآية الرعد المذكورة سابقا تتحدث عن الاختلاف في بقاع الأرض ، و الاختلاف في أنواع الثمرات، وقوله تعالى:﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ ([2]) فيه كثير من التأمّل والتفكير.

و يعدُّ الرازي من أوائل الذين اهتموا بمثل هذه الفروق والكشف عن دقائق المعاني في الفواصل المتشابهة، فهو يرى أن هذه الفروق لطائف نفيسة من أسرار علم القرآن ، لا يتأتى الوصول إليها إلا بالتغلغل في معانيها .

ويبين الفخر تدرج المعاني مع توالي الفواصل في قوله تعالى :﴿ **وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾ ([3]).

يرى الرازي أن الذكرى تحصل أولا،ثم تؤدي إلى التقوى،فيقول:«...والسبب في أن التذكّر متقدّم على الاتقاء، لأنه إذا تذكره وعرفه ووقف على فحواه ،وأحاط بمعناه حصل الاتقاء »([4]).

و يبرز الرازي سرّ تقدم الفواصل على بعضها ، ويبين ما وراء هذا التقديم من دلالات ومقاصد. فها هو يشتغل بسياق السورة ليكشف عن مدى براعته في انتخاب الفواصل المناسبة.

ففي قوله تعالى :﴿ **يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾([5])، يبين الحكمة من تقديمه قوله: (ولو كره الكافرون) على قوله:(ولو كره المشركون) فيقول:« لأن لفظ الكافر أعمّ من المشرك، والمراد من الكافرين ههنا اليهود والنصارى والمشركين ،وهنا ذكَر النّور

[1])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 19 / ص 07.
[2])- البقرة : 164.
[3])- الزمر : 27 – 28 .
[4])- المصدر نفسه ، ج 26 / ص 276 .
[5])- الصّف : 08 – 09 .

و إطفاءه، واللائق به الكفر لأنه الستر والتغطية، لأن من يحاول الإطفاء إنما يريد الزوال، وفي الآية الثانية ذكر الرسول والإرسال ودين الحق، وذلك مترلة عظيمة للرسول عليه السلام،وهي اعتراض على الله تعالى...والاعتراض قريب من الشرك، ولأن الحاسدين للرسول عليه السلام كان أكثرهم من قريش وهم المشركون،ولما كان النور أعمّ من الدين و الرسول، لا جرم قابله بالكافرين الذين هم جميع مخالفي الإسلام و الإرسال ، و الرسول و الدين أخص من النور قابله بالمشركين الذين هم أخص من الكافرين » ([1]) .

ويبين الفخر الفرق بين (يفقهون) و(يعلمون) إذا وردتا فاصلتين متتاليتين، كما في قوله تعالى: ﴿ **هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ . يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ ([2]).

جاء في المفردات:« الفقه هو التوصّل إلى علم غائب بعلم شاهد، فهو أخصّ من العلم » ([3]) .

وعلى معنى هذا التعريف نرى الرازي يبين علة تقد يم فاصلة (يفقهون)على فاصلة (يعلمون) ، فيقول :« ليعلم بالأوّل قلّة كياستهم وفهمهم , وبالثاني كثرة حماقتهم وجهلهم ...والأول لحصول الفقه بالتكلّف , والثاني لا بالتكلف ,فالأول علاجي , والثاني مزاجي » ([4]).

ومعنى قوله: بالتكلف: أي أن الإنسان يبذل كل جهده للوصول إلى الشيء. فيحاول استحضار كلّ المعطيات التي تساعده على الفهم الصحيح ,فيكون بذلك قد علم علما غائبا باستحضار العلم الشاهد. أمّا العلم فيكون بدون تكلّف ولا إجهاد. فهو المعرفة المباشرة للشيء.

و من هنا يمكن القول أن تحليل الرازي للفظي " يفقهون " و " يعلمون" موافق لتعريف الأصفهاني .

و يقارن الرازي بين ثلاث فواصل جاءت متتالية في سياق الحديث عن آيات الله.و يوضح مدى ملاءمة كل فاصلة للموضوع الذي ختم بها.

[1])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 29 / ص 315 – 316 .
[2])- المنافقون : 07 – 08 .
[3])- الراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ، ص 384 .
[4])- فخر الدين الرازي، المصدر السابق ، ج : 30 / ص 18.

قال تعالى:﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ . وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ ([1]) .

يقول الرازي:« قال(آيات لقوم يسمعون)، وقال من قبل:(لقوم يتفكرون) وقال: (للعالمين) فنقول المنام بالليل والابتغاء من فضله يظنّ الجاهل أو الغافل أنهما مما يقتضيه طبع الحيوان، فلا يظهر لكل أحد كونهما من نعم الله، فلم يقل آيات للعالمين، ولأن الأمرين الأولين وهو اختلاف الألسنة والألوان من اللوازم والمنام و الابتغاء من الأمور المفارقة فالنظر إليهما لايدوم لزوالهما في بعض الأوقات ولا كذلك اختلاف الألسنة والألوان، فإنهما يدومان بدوام الإنسان فجعلهما آيات عامة. وأمّا قوله:(لقوم يتفكرون)، فاعلم أن...خلق الأزواج لا يقع لأحد أنه بالطبع إلا إذا كان جامد الفكر خامد الذكر، فإذا تفكّر عَلِم كون ذلك الخلق آية، وأمّا المنام والابتغاء فقد يقع لكثير أنهما من أفعال العباد، وقد يحتاج إلى مرشد بغير فكرة، فقال (لقوم يسمعون)»([2]).

إنّ خلقه تعالى للأزواج وما جعل بينهما من مودة و رحمة يدعو إلى التفكر و التأمل، لمعرفة قدرته وعظمته، واختلاف الألسنة و الألوان من اللوازم الظاهرة دائمة بدوام الإنسان يشهدها الأوّلون والمتأخرون من العالمين، أمّا النوم فهو من نعم الله على عباده، ويعلم هذا كل من له سمع.

و يذكر الرازي فرقا حكيما بين العقل و اللّب في فاصلتي آيتين متشابهتين في قوله تعالى:﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾([3])، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ([4]).

يقول الرازي في تفسيره للآية الثانية :« إنه تعالى استقصى في هذه الآية الدلائل السماوية، وحذف الدلائل الخمسة الباقية التي هي الدلائل الأرضية. وذلك أقهر وأبهر والعجائب فيها أكثر، و انتقال القلب منها إلى عظمة الله و كبريائه أشدّ، ثم ختم تلك الآية

[1])- الروم : 21 – 23 .
[2])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 25 / ص 112 – 113 .
[3])- البقرة : 164 .
[4])- أل عمران : 190 .

بقوله (لقوم يعقلون)،وختم هذه الآية بقوله (لأولي الألباب)،لأن العقل له ظاهر وله لبّ،ففي أوّل الأمر يكون عقلا، وفي كمال الحال يكون لبّا »([1]).

إنّ الدلائل في الآية الأولى دلائل سماوية و أرضية. أمّا الدلائل المذكورة في الآية الثانية فهي دلائل سماوية ، و لمّا كانت الدلائل الأرضية تفهم بالعقل و الدلائل السماوية لا تفهم إلا باللّب لعظمتها، فإنه يظهر لنا أن قوله : (لقوم يعقلون) في الآية الأولى مناسب لما تضمّنته من دلائل أرضية فقط. لأنه لو تناسب مع جميع الدلائل المذكورة لكان ذلك تناقضا عند الرازي ، فالآية الأولى تحتوي أيضا على دلائل سماوية لا تفهم إلاّ باللّبّ.

و في قوله تعالى:﴿... **آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴾ ([2]) ،و قوله تعالى:﴿... **فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ** ﴾([3])، يبين الرازي مجيء (فريضة من الله) في الفاصلة الأولى، و (وصية من الله) في الفاصلة الثانية ،فيقول:« إن لفظ الفرض أقوى و آكد من لفظ الوصية ، فختم شرح ميراث الأولاد بذكر الفريضة، و ختم شرح ميراث الكلالة بالوصية » ([4]).

و هذا دليل على أن الكلّ واجب الرعاية إلا أن رعاية حال الأولاد أولى. ولا تكون الوصية إلاّ بمراعاة حال الأولاد، فعلى الإنسان أن ينظر في حال الأولاد ثم يجعل وصيته بحسب ذلك.

قال علي بن طالب : « لَأن أوصي بالخمس أحبّ إليّ من الربع ، و لَأن أوصي بالربع أحبّ إليّ من أن أوصي بالثلث ». و أجمع العلماء على أنه من الأولى أن لا تكون الوصية في أكثر من الثلث.

و يورد الرازي إشكالا ثم يجيب عليه في فاصلة (إن الله غفور رحيم) في قوله تعالى :﴿1235 **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾([5]).

وقبل أن نذكر ما جاء به الرازي في هذه الآية نحاول إلقاء نظرة في بعض معاجم اللغة العربية لفهم معنى (غفر).

---

[1])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 09 / ص 135 .
[2])- النساء : من 11 .
[3])- النساء : من 12.
[4])- المصدر نفسه ، ج 09 / ص 226 .
[5])- البقرة : 173 .

جاء في معجم مقاييس اللغة أن الغين و الفاء و الرّاء عُظْمُ بابِه السَّتر([1]).

و قال الأصفهاني: « الغَفْرُ إلباس ما يصونه عن الدّنس ، و منه قيل اغفر ثوبك في الوعاء ، و اصبغ ثوبك فإنه أغْفَرُ للوسخ . و الغفران و المغفرة من الله هو أن يصون العبد من أن يمسَّهُ العذاب »([2]) .

و معنى قوله اغفر ثوبك: اغسله من الدّنس ، و أن الله يصون عبده من أن يمسَّه العذاب، لا من أن يمسّه الذنب، فقد يمسّه الذنب فيغفر الله له، و لا يمسّه العذاب .

و من هنا اعتبر الرازي أن في الفاصلة إشكالا يطرح، وهو:كيف يليق أن يقول بعد (فلا إثم عليه): (إن الله غفور رحيم) ؟ ، مع أن الغفران لا يكون إلاّ بعد حصول الإثم.

و يجيب الرازي على هذا الإشكال بثلاثة و جوه نذكر منها وجهين:

1 - لعلّ المضطر يزيد عن تناول الحاجة فهو سبحانه غفور بأن يغفر الله له تناول الزيادة، ورحيم حيث أباح له تناول قدر الحاجة .

2 – إنّ الله تعالى غفور لأنه يغفر للعصاة إذا تابوا من تناول هذه المحرمات ، و هو رحيم بالمطيعين المستمرين على نهج حكمه ([3]).

الخـــواتـــم :

سبق وأن ذكرتُ أنّ ملامح السياق عند الرازي تظهر من خلال اهتمامه بالنظم ،وقد لاحظت في كثير من المواضع أنه كان يقرن النظم بالترتيب والمناسبة، فقد كان يفهم معنى الكلمة أو التركيب من خلال وضعه داخل السياق،وعلاقتها بما يحيط بها من العناصر.

و سأعرض فيما يلي بعض جهود الرازي في ربطه لخاتمة السورة بما قبلها لفهم معناها.

قال تعالى:﴿ **هَـذَا بَلاَغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ ([4]).

---

[1]) – أبو الحسين أحمد بن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، ج 04 / ص 385 .

[2])- الراغب الأصفهاني : المفردات في غريب القرآن ، ص 362 .

[3])- ينظر: فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 05 / ص 13 .

[4])- إبراهيم : 52 .

يقول الرازي :« أي هذا التذكير و الموعظة بلاغ للناس، أي كفاية في الموعظة ، ثم اختلفوا فقيل: إن قوله هذا إشارة إلى كل القرآن، و قيل بل إشارة إلى كل هذه السورة ، و قيل بل إشارة إلى المذكور من قوله (و لا تحسبن) إلى قوله(سريع الحساب) » ([1]) .

لقد كان الرازي يقلب آراء العلماء في كثير من مسائل تعلُّق الخاتمة بما قبلها سواء في محيط الآية، أو في محيط السورة، أو في محيط النظم القرآني كله،ثم يكشف عن ربط الخاتمة بالمعاني العامة للقرآن الكريم ، و التي منها : المعرفة و التوحيد و النبوة.

و الـــرازي في دراستـــه للجملة يقف عند الجمل التي تشكـــل مقطعا ينقطع عنده الكلام و تستقر عنده الدلالة، فلا تصلح كل جملة أن تكون خاتمة سورة، بل هناك خصوصيات لجملة الختام تميزها عن باقي الجمل.

قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ آَمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَـــرُوا وَجَاهَدُوا مَعَـــكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ ([2]).

يقول الرازي في تفسيره لقوله : (إن الله بكل شيء عليم) : « و المراد أن هذه الأحـــكام التي ذكرتها و فصلتها كلها حكمة وصواب وصلاح. وليس فيها شيء من العبث و الباطل ؛ لأن العالم بجميع المعلومات لا يحكم إلاّ بالصواب. و نظيره أنّ الملائكة لما قالوا:(أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء)، قال مجيبا لهم: (إني أعلم ما لا تعلمون)، يعني لمّا علمتم كوني عالما بكلّ شيء فاعلموا أنّ حكمي منـــزّه عن الغلط. كذا ههنا » ([3]).

يقارن الرازي فاصلة هذه الآية ،والتي هي خاتمة السورة بقوله : (إني أعلم ما لا تعلمون) في سورة البقرة، و موقعها من الآية التي جاءت في سياقها ، فكانت الفاصلة في سورة البقـــرة دالة علـــى أنه رغم الاعتراضات الواردة من الملائكـــة إلاّ أنه تعالى اتخذ سيدنا آدم خليفة في الأرض .والملائكة كانوا متخوفين من أن يجعل الإنسان الأرض ساحة فساد و سفك للدّماء.

و تناسب سياق سورة الأنفال مع سياق الآية، لِـــمَا كان في السورة من كراهية المؤمنـــين و تردّدهم عند الأمر بالقتال ، لقلّتِهم ، و ضعفهم، و خوفهم على مستقبل هذا الدين.

[1])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 19 / ص 149.
[2])- الأنفال : 75 .
[3])- المصدر نفسه ، ج 15 / ص 214 .

و تتقارب كثيرٌ من الخواتم في موضوعاتها ، أو تراكيبها، إلا أننا نجد تنوعا واضحا في تفسير الرازي لهذه الخواتم تبعا لاعتبارات سياقيـــة تغير مدلولاتهـــا في كل موضع ،كما في انتهاء بعض السور بالحمد مثل: الصافات و الزّمر و الجاثية.

يقول الرازي في تفسيره لخاتمة سورة الصافات ﴿ **وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ ([1]) : « فنبّه على هذا الحرف بقولـــه: (والحمد لله رب العالمين)، وذلك لأن استحقاق الحمد لا يحصـــل إلاّ بالإنعام العظيم ، فبيـــّن بهذا كونه منعِماً . و ظاهر كونه غنيـــّاً عن العالمين، ومن هذا وصفه كـــان الغالب منه هو الرحمـــة و الفضل والكرم، فكـــان هذا الحرف مُنَبِّهاً على سلامة الحال بعد الموت »([2]).

و الحمـــد في هذا السياق دليل على سلامة الحال بعد الموت. أمّا في سورة الزمر فجاءت في سيـــاق حكاية أحوال القيامة، و موقف الحشر وما يحفل به من خوف و رجاء، ثمّ يصير كل بحسب عمله، فالكافرون يصيرون إلى جهنم ، و المؤمنون الصادقون آتاهم الله ما وعدهم فحمدوا ربهم على ذلك.

و يرى الرازي أن الحمد في سياق سورة الزمر إقرار بصفات الإلاهية، و تتريه الله عن كل ما لا يليق به ، فقال :« و قوله : (و قيل الحمد لله رب العالمين) عبارة عن الإقرار بكونه موصوفا بصفات الإلاهية و هي صفات الإكرام »([3]).

لقد كـــان الحمد في سورة الصافات دليـــل على سلامة الحال بعد الموت، وكان في سورة الزمر دليل على الإقرار بصفات الإلاهية ، و تتريه الله عن كل ما لا يليق به. أمّا في سورة الجاثية – و إنْ كان في سياق متشابه لسياق حكاية موقف العرض – فإن الـــرازي يردّ دلالته إلى المعنى الكليّ للسورة، فجعله مترتباً عن اكتمال الأدلة و البراهين.

يقـــول الرازي « فقـــال : (فلله الحمـــد ربّ السمـــوات و ربّ الأرض ربّ العالمين) أي: فاحمدوا الله الذي هو خالق السموات والأرض، بل خالق كل العالمين من الأجسام والأرواح والذوات و الصفات » ([4]).

---

[1])- الصافات : 182 .
[2])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 26 / ص 173 .
[3])- المصدر نفسه ، ج 27 / ص 24 .
[4])- المصدر نفسه ، ج 28 / ص 275 .

فالفخـــر في هذا التعليل حمل لفظ الحمد على معنى الإلزام و جعل الأصل فيه الأمر باعتبار موقعـــه في سيـــاق الأدلة و البراهين ، فكأنه أمـــام هذا البرهان القاطـــع لا يتسنى لأحد إلا أن يسلّم به، و يحمد الله دون سواه .

ويظهر تناسب هذه الخاتمة بما قبلها في أنها جاءت نتيجة لما قبلها. فوقوفهم أمام هذه الحجج و البراهين القاطعة جعلهم يحمدون الله دون سواه .

03 – التّكـــــــــــــرار:

اهتم علمـــاء الدراسات القرآنية بقضية التكرار في القـــرآن الكريم ،فاهتموا بجوانبه البلاغية وأغراضه في القرآن الكريم . والتكرار في عمومه يأتي لغرض التأكيد ،فيستعمل كثيرا في اللغـــة العربية بكونه طريقة من طرائق التوكيد، وهو يفيد أيضا التقرير والتنبيه والإقناع والإفهام، ذلك أنّ البليغ في اللغة العربية لا يكرر كلامه عبثا ، وإنما يكرره لفوائد عديدة ومعان جديدة .

والتكرار يجعل الألفاظ تتناوب وتعاد في سياق التعبير، فيشكل نغما موسيقيا تطرب له أذن السامع. وهو في القرآن الكريم ينطوي على نكت بلاغيـــة منها ما جاء على سبيل المدح كمـــا في قوله تعالى : ﴿**وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ** ﴾ ([1]) ، ومنها ما جاء في التهديد ،كقوله تعالى: ﴿ **الْحَاقَّةُ . مَا الْحَاقَّةُ**﴾([2])، وما جاء على سبيل الاستبعاد كما في قوله:﴿ **هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ** ﴾([3]).

وهناك معان أخرى كالتهويل والتنبيه والتصوير وتقرير المعاني في النفوس ([4])

ويرى بعض المفسرين أن التكرار عيب من عيوب اللغة ، وينبغي للقرآن أن يُنَزَّه عنه ،وهذا واضح في تأويلاتهم للتكرار .

والحق أنّ القرآن نزل بلسان عربي ، والتكرار في الكلام مذهب عربيّ يوظف قصد التوكيد والإفهام، ومن مذاهبهم أيضا الاختصار قصد الإيجاز والتخفيف ، ونجد أن التكرار قد حضي باهتمام كبير من الإمام فخر الدين الرازي،فقد وقف على كثير من أساليبه في القرآن الكريم، وبيَّن أسراره البلاغية ،وما يضيفه في حسن للكلام .

والتكرار ثلاثة أنواع:

- تكرار اللفظ و المعنى .
- تكرار في المعنى دون اللفظ .
- تكرار في اللفظ دون المعنى .

أ – التكرار في اللفظ والمعنى :

هذا النوع من التكرار هو الأكثر في التفسير ،وقد ذكر له الرازي أغراضا كثيرة نكتفي بذكر بعضها .

---

[1])- الواقعة : 10.
[2])- الحاقة : 01 – 02 .
[3])- المؤمنون : 36.
[4])- ينظر : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ،تأويل مشكل القرآن ، تح أحمد صقر، المكتبة العلمية ، المدينة المنورة، ط03، 1981،ص: 232.

قال تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ ([1]).

جاء التكرار في هذه الآية متلطفا، ليعرِف النفس المنغمسة في حمأة الظلال وطريق الغواية عمّا هي عليه. يقول الرازي في هذا الموضع: « كرّر في الآيتين (قل يا أهل الكتاب) لأن المقصود التوبيخ على ألطف الوجوه، وتكرار هذا الخطاب اللطيف أقرب إلى التلطّف في صرفهم عن طريقتهم في الظلال و الإظلال ، وأدلّ على النّصح لهم في الدين و الاشفاق » ([2])

أمّا في قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ** ﴾([3])، يورد الرازي معنى آخر للتكرار، فيرى فيه إذلالاً للذين كذبوا شعيبا، و تحقيرا لشأنهم ، و تهويلا لما فعلوه.

يقول الرازي:« و إنّما كرّر قوله (الذين كذبوا شعيبا) لتعظيم المذلّة لهم ، وتفظيع ما يستحقون من الجزاء على جهلهم ، و العرب تُكرِّر مثل هذا في التفخيم و التعظيم، فيقول الرجل لغيره: أخوك الذي ظلمنا ، أخوك الذي أخذ أموالنا ،أخوك الذي هتك أعراضنا » ([4]).

و يعدّ التأكيد المحور الأساسي الذي يدور حوله التكرار، و لهذا نجده في كثير من آيات القرآن الكريم ،كما في قوله تعالى: ﴿ **لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾([5]).

يقول الرازي في هذه الآية :« و قوله:(فلا تحسبنّهم بمفازة) تأكيد للأوّل، و حسنت إعادته لطول الكلام، كقولك : لا تظنّ زيدا إذا جاءك و كلّمك في كذا و كذا ، فلا تظنّه صادقا » ([6]).

و أورد القزويني هذا المعنى في قوله: « و قد يكرّر اللفظ لطول الكلام ،كما في قوله تعالى: (ثم إنّ ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك و أصلحوا إنّ ربّك من بعدها لغفور رحيم)»([7]) .وذكر أنّ اللفظ قد يتكرر لطول الكلام . والحقيقية أنه لا ينبغي أن نكتفي

---

[1])- آل عمران : 98 – 99 .
[2])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير، ج 08 / ص 158.
[3])- الأعراف : 92 .
[4])- المصدر نفسه ، ج 14/ ص 182.
[5])- آل عمران : 188.
[6])- المصدر نفسه ، ج : 09 / ص 131 – 132 .
[7])- الخطيب القزويني ،الإيضاح في علوم البلاغة ، ج 01 / ص 304 .

بقولنا: حَسُـــن التكرار لطول الكلام، بل يجب الكشف عن ما ينطـــوي عليه طول الكلام حتى اقتضى التكرار .

ويبدو أن الرازي تنبه لذلك، و لم يكتف بقوله:(طول الكلام)،بل كان يربطه دائما بموضوع السورة التي ورد فيها ، ويعالجه داخل سياقه ليعرف السرّ من تكرار اللفظ.

وقد أورد الرازي معنـــى التأكيد للرّدع و الإنذار الوارد في سياق التهديد و الوعيد لأولئك الذين شغلتهم الدنيا، وشغلهم تكاثرهم بالأمـــوال و الأولاد عن ذكـــر الله ، وذلك في قـــوله تعالى: ﴿**كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ ([1]) .

قـــال الفخـــر في تفسيره لهاتين الآيتين : « أنه للتأكيـــد ، وأنه وعيـــد بعد وعيد ،كما تقول للمنصوح: أقول لك ،ثم أقول لك لا تفعل »([2]).

وذكر الخطيب في هذا الموضع أن التكـــرار دلالة على أن الإنذار الثاني أبلـــغُ وأشـــدّ من الأول ، فهو تأكيد للإنذار ([3]).

ويتتبـــع الرازي التكرار داخل سياق الســـورة محاولا الكشف عن معناه ، وإن كان اللفظ المكرر بعيدا من حيث موقعه في السورة. ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا**﴾([4])،وفي قوله:﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا**﴾([5]).

في هذه الســـورة تكرار لآية، وليس للفظ فقط، ونرى أنّ الآيتين متباعدتـــان من حيث موقعهـــما في السورة، إلاّ أنّ الرازي لم يصْرف نظره عن هذا النوع من التكـــرار، وأورد فيـــه رأيه، وأعطاه معناه الذي لا يخرج عن معنى التأكيد باتفاق المفسرين .

يقـــول الرازي :« اعلـــم أنّ هذه الآية مكررة في هذه الســـورة ، وفي تكرارها فائدتان الأولى: أنّ عمومات الوعيد وعمومات الوعد متعارضة في القرآن، وأنّه تعالى ما أعاد آية في آيات الوعيد بلفظ واحد، مرتين وقد أعـــاد هذه الآية الدالة على العفو والمغفرة بلفظ واحد في سورة

[1])- التكاثر : 03 – 04 .
[2])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 32 / ص 78 .
[3])- ينظر: الخطيب القزويني ،الإيضاح في علوم البلاغة ، ج 01 / ص 304 .
[4])- النساء : 48 .
[5])- النساء : 116 .

واحدة. وقد اتفقوا على أنه لا فائدة في التكرار إلاّ التأكيد، فهذا يدل على أنه تعالى خصّ جانب الوعد والرحمة بمزيد التأكيد ، وذلك يقتضي ترجيح الوعد على الوعيد...» ([1]).

لقد دلّت هاتـــان الآيتان على الوعـــد والوعيد، إلا أن الرازي رجَّح دلالتهما على العفو و المغفرة في قوله (يغفر مادون ذالك لمن يشاء) .

و قد ذكر الرازي سرّ تكرار قوله تعالى: ﴿ **فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ إحدى وثلاثين مرة في سورة الرحمان .

يتساءل الرازي عن الحكمة من هذا التكـــرار ، ثمّ يجيب عن تســـاؤله بوجوه، نذكر منها واحدا. قال الفخر: « ما الحكمة في تكرير هذه الآية، وكونه إحدى وثلاثين مرة ؟ نقول الجواب عنه من وجوه :

الأول :إن فائدة التكرير التقرير ... » ([2])

ب – تكرار في المعنى دون اللفظ :

اهتـــمّ الرازي بهذ النوع من التكـــرار وبين أســـرار مجيئه على هذه الهيئة ، و رأى أنه يأتي ـــ غالبا ـــ ليفيد التأكيد ،كما في قوله تعالى : ﴿ **وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ** ﴾ ([3]) .

جاء في المفردات :اللّعن : الطّرد والإبعاد على سبيل السخط ، وذلك من الله تعالى ([4]).

و هو في مختار الصحاح الطرد والإبعاد من الخير ([5]).

وقال الرازي في تفسيره لهذه الآية : « اللّعن هو البعد ،فلمّا قال :(وأُتْبِعوا في هذه الدنيا لعنة و يوم القيامة) فما الفائدة من قوله: (ألا بُعْداً لعادٍ) ؟

و الجواب : التكرير بعبارتين مختلفتين يدلّ على غاية التأكيد »([6]).

و ذكر الرازي أنّ المعنى قد يتكرّر للتأكيد مع التبكيت. ومن ذلك قوله تعالى:﴿... **وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ** ﴾([7]).

---

[1])- فخر الدين الرازي : التفسير الكبير، ج 11 / ص 45.
[2])- المصدر نفسه ، ج 29 / ص 96 .
[3])- هود : 60.
[4])- ينظر : الراغب الأصفهاني ،المفردات في غريب القرآن ، ص 451 .
[5])- ينظر : أبو بكر الرازي، مختار الصحاح ، ص 599 .
[6])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 18 / ص 16 .
[7])- البقرة : 61 .

يكشـــف الرازي عن معنى التكرار في هذه الآية فيقول:« وأما قوله: (ذلك بما عصوا)، فهو تأكيد بتكرير الشيء بغير اللفظ الأول ، و هو بمنزلة أنْ يقول الرجل لعبده و قد احتمل فيه ذنوبا سلفت منه فعاقبه عند آخرها: هذا بما عصيتني و خالفت أمري، و هذا بما تجرأت عليّ و اغتررت بحلمي ، هذا بكذا ، فيعدّ عليه ذنوبه بألفاظ مختلفة تبكيتا» ([1]).

ج – تكرار اللفظ دون المعنى :

قد يتكـــرر اللفظ أو الجملة دون المعنى ، و لا يسمي الفخر هذا النوع تكرارا ، لأن المعنى في الجمـــلة الأولى يختلف عن المعنى في الجملة الثانية. و الذي يحدد لنا اختلاف اختلاف المعنى مع تشابه اللفظ هو تحريـــك السياق و النظر إلى ما يحيط باللفظ من عناصـــر لغوية. و منه قـــوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ .وَأُمِـــرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ . قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي** ﴾([2]) .

يقول الـــرازي في تفسير لهذه الآية:« فإن قيل ما معنى التكرير في قوله: (قل إني أمرت أن اعبد الله مخلصا له الديـــن، و قوله تعالى:(قل الله أعبد مخلصا له دينـــي) ؟ قلنـــا هـــذا ليس بتكرير، لأن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله بالإتيان بالعبادة ، و الثاني إخبار بأنه أمر بأن لا يعبد أحدا غير الله ، وذلك لأن قوله (أمرت أن أعبد الله) لا يفيد الحصر،وقوله تعالى : (قل الله أعبد) يفيد الحصر » ([3]). و معنى هذا أن الكلام إذا اختلف معناه فليس بتكرار ، حتى ولو اتفق مبناه .

قال تعالى: ﴿ **كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّـــي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُـــونِ . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْـــرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** ﴾ ([4]).

في هـــذه الآية أيضا لا يعتبر الرازي ذكر الأمر بالتقوى أكثر من مرة تكرارا : لأنه مختلف في المعنى ، فيقول: « ...لأنّه في الأول أراد ألا تتقون مخالفتي و أنا رسول الله، و في الثاني، ألاَ تتقون مخالفتي و لست آخذ منكم أجرا . فهو في المعنى مختلف، ولا تكرار فيه. و قد يقول الرجل

[1])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 03 / ص 103 .
[2])- الزمر : 11 – 14 .
[3])- المصدر نفسه، ج 26 / ص 255 .
[4])- الشعراء : 105 – 110.

لغيـــره : ألا تتقـــي الله في عقوقـــي و قد ربيتك صغيرا ! ألا تتقي الله في عقوقي و قد علّمتُك كبيرا »([1]).

و الحقيقة أن كلامه هذا يقرّب لنا معنى التقرير و التأكيـــد في تكرار الأمر بالتقـــوى ،لأن الغرض الأساسي من هذا التكرار هو تقرير أمر التقوى في نفوسهم ، و مثاله الذي استدل به يدل أيضا على تقرير التقوى الذي ينعدم في قوله (ألا تتّقي الله في عقوقي وقد ربيتك صغيرا و علمتك كبيرا).

و ذكر الزمخشـــري معنى التقرير في هذه الآية في قـــوله: « و كرّره ليؤكد عليهم و يقرره في نفوســـهم مع تعليق كل واحدة منها بعلة، جعل علة الأول كونه أمينا فيما بينهم، وفي الثاني حسم طمعه عنهم » ([2]) . و معنى حسم طمعه عنهم أنه لم يطلب منهم أجرا.

د – تكرار الضمائر :

وفي تكرا الضمائر داخل السياق القرآني نذكر ما ورد في قوله تعالى : ﴿ **قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ** ﴾ ([3]).

قال ابن عطية في هذا الموضع : «و كرر (هم) على جهة التأكيد، وحسُن ذلك للفاصلة التي بينهما » ([4]). و ذكر ابن الجوزي أن تكرار الضمير(هم) في الآية للتوكيد ([5]). وقد أكّد معظم المفسرين أن (هم) الثانية دخلت للتأكيد.

واعتمد الـــرازي قرينة السياق، فربط تكرار الضمير المنفصل (هم) بموضوعه الذي ورد فيه ليكشف عن معنى تكراره فيقول :« تكرير لفظ (هم) في قوله (وهم بالآخرة هم كافرون)، لبيان اختصاصهم بالكفر، و لعل إنكارهم للمعاد أشدّ من إنكارهم للمبدأ، فلأجل مبالغتهم في إنكار المعاد كرَّرَ هذا اللّفظ للتأكيد »([6]).

و يبين الرازي أن هذا التكرار كان بسبب قوة الظلال الذي وصل إليه أولئك القوم، ليؤكّد تركَهم و إعراضَهم و كفرهم .

---

[1])- فخر الدين الرازي ،التفسير الكبير ، ج 24 / ص 154 - 155.
[2])- أبو القاسم الزمخشري ، الكشاف ، ج 03 / ص 120 .
[3])- يوسف : 37 .
[4])- أبو محمد عبد الحق بن عطية : المحرر الوجيز ، ج 03 / ص 245 .
[5])- أبو الفرج جمال الدين بن الجوزي : زاد المسير في علم التفسير ، ج 04 / ص 225 .
[6])- فخر الدين الرازي ،التفسير الكبير ، ج 18 / ص 137 .

04 – الربط بين الآيــة والآيــة :

سبق و أن ذكرنا أنّ السياق في مفهومه العام هو ترابط أجزاء النص فيما بينها، و أنّ إعمال السياق هو النظر إلى الوحدة اللغوية داخل سياقها و ربطها بما قبلها وما بعدها .

و بنـــاء على هذه يكننـــا القول بأن الرازي قد تفطن لفكرة السياق، وتقيّد بها في تفسيره وفهـــمه لآيات الله تعالى. فقد اعتنـــى الفخر بانتظـــام الآية مـــع ما سبقها من آيات القـــرآن الكريم، وتعرض في تفسيره إلى الربط بين الآية والآية، وله في ذلك طرق وأساليب،من ذلك ربطه الآية بالآية التي تسبقها مباشرة، أو بالتي تسبقهـــا بعدة آيات، ومن طـــرائقه أيضا أنه يـــورد الإشكال، ثم يجيب عليه بجواب ، أو بأكثر من جواب .

ويظهر لنا اهتمام الرازي بربطه الآية بالآية في مواطن عدة من تفسير ه ،وهذه نماذج وأمثلة تبين لنا مدى اعتماده على السياق في ربطه بين الآيات .

قال تعالى : ﴿ **الم .ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ ([1]) .

تنبّـــه الرازي إلى اتّصال قولـــه (ذلك الكتاب) بـــ قوله (الم)، فتساءل عن المشـــار إليه بقوله (ذلك)، ثمّ أجـــاب عليه بوجـــوه، ذكر في خامسها:« أنّه وقعت الإشارة بذلك إلى (الم) بعدما سبق التكلّم به وانقضى ،والمنقضى في حكم المتباعد » ([2]).

وقد أشار إلى قوله (الم) بقوله (ذلك الكتاب) وذلك لأنّ (الم) آية ،و الآية جـــزء من القرآن ، ويسمَّى بعض القرآن قرآنا . قال تعالى: ﴿ ...**إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا**﴾([3]).

فلا يعقل أنّهم استمعوا للقرآن من أوله إلى آخره .

و يربـــط الرازي قـــوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يُؤْمِنُـــونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّـــلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** ﴾([4]) بقوله :﴿ ... **هُدًى لِلْمُتَّقِينَ** ﴾([5]).

يقـــول الرازي في هـــذا الموضع:« قال بعضهم: (الذيـــن يؤمنـــون بالغيب ويقيمـــون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) يحتمل أن يكون كالتفسير لكونهم متقين،وذلك لأن المتقي هو الذي يكون فاعلا للحسنات وتاركا للسيئات » ([6]).

---

[1])- البقرة : 01 – 02 .
[2])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 02/ ص 13 .
[3])- الجن : من 01
[4])- البقرة : 03 .
[5])- البقرة : من 02 .
[6])- المصدر نفسه ، ج : 02 / ص : 23 .

لقد جعل الرازي الآية بيانا وتفسيرا للآية التي قبلها ، وهذا ربط قويّ وواضح،واتصال متين بيـــن الآيتين، وذلك لأنـــه من صفات المتقـــي أن يكون مؤمنا بالغيب، ومقيما للصلاة، ومؤديا للزكاة.

ويعتمـــد الـــرازي على السياق في ربطه بين الآية والأخرى ، ويظهر ذلك في ربطه لقوله تعالى : ﴿ **أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ ([1]) بقوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** ﴾ ([2]).

يذكر الـــرازي ثلاثة وجوه في كيفية تعلق هذه الآية بما قبلها، قال في ثالثها:« أن يجعل الموصول الأولَ صفةَ (المتقين)، ويرفع الثاني على الابتداء ، و(أولئك)خبره ، ويكون المراد جعلُ اختصاصهم بالفلاح والهدى تعريضا بأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم ظانّون أنهم على الهدى ، وطامعون أنهم ينالون الفلاح عند الله تعالى »([3]). ويقصد الفخر بقوله :(الموصول الأول) قوله تعالى : (الذين يؤمنون بالغيب) ، و بقوله: (الثاني) قوله تعالى : (والذين يؤمنون بما أنزل إليك).

يجعل الرازي الآية الأولى مبتدأ والثانية خبرا، وهذا الربط أيضا قويّ و واضح، بل هو أقوى وأوضـــح من الربط المذكور قبله ،ذلك لأن العلاقة بين المبتدأ والخبر أقوى من العلاقة بين الصفة و الموصوف

و الحقيقة أن فكرة السياق تبدو لنا جلية في ربط الرازي الآيات ببعضها البعض ، ذلك لأنّ السياق بمفهومه العام يعني الربط.

والربط بين الآيات يتخذ – عند الرازي – أشكالا متعددة من العلاقات ، و أنواعا مختلفة من الأغراض نذكر منها ما يلي :

أ – التعليـــــــــل :

قال تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِيـــنَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُـــونَ** ﴾([4])،ثـــمّ قال : ﴿ **خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾([5]).

[1])- البقرة : 05 .
[2])- البقرة : 04 .
[3])- فخر الدين الرازي، التفسير الكبير ، ج 02 / ص 33 .
[4])- البقرة : 06 .
[5])- البقرة : 07 .

العلاقة بين هاتين الآيتين علاقة تعليل ، يوضحها الرازي في تفسيره للآية الثانية في قوله:« اعلم تعالى لمّا بيّن في الآية الأولى أنّهم لا يؤمنون ، أخبر في هذه الآية بالسبب الذي لأجله لم يؤمنوا ، وهو الختم »([1]).

فالعلاقة التي ذكرها الرازي بين هاتين الآيتين هي علاقة تعليل، وهي علاقة السبب بالمسبب ، وهذا اقتناص حكيم من الرازي في العلاقات بين الآيات .

ب – زيادة بيان :

أورد الرازي هذا النوع من العلاقات بين قوله تعالى :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** ﴾ ([2])، وقوله : ﴿**لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾([3]).

يرى الرازي في الآية الثانية أنّها جاءت لتبيّن ما قد يقع في الآية السابقة لها من تساؤل وغموض .

وقد يأتي المعنى ليبين معنى سبقه ، ولا يفهم ذلك من ظاهر اللفظ ، بل يفهم من حُسْنِ تجاور الكلام، وبحسن تجاور الكلام يأتي حسن البيان. يقول الرازي:« لمّا عاتَبهم الله عمّا صدر منهم من قتل من تكلم بكلمة الشهادة ، فلعلّه يقع في قلبهم أنّ الأولى الاحتراز عن الجهاد لِئلاّ يقع بسببه في مثل هذا المحذور، فلا جرم ذكر الله تعالى في عقيبه هذه الآية ، وبيّن فيها فضل المجاهد على غيره إزالةً لهذه الشبهة » ([4]) .

ومعنى تحليله أن الآية لا يمكن تفسيرها بمعزل عما يجاورها من عناصر و مكونات، بل يفهم معناها داخل سياق الكلام ، و من خلال تعلّقها بما قبلها و ما بعدها.

[1])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 02 / ص 48 .
[2])- النساء : 94 .
[3])- النساء : 95 .
[4])- المصدر نفسه ، ج 11 / ص 06 .

ج – التفصيـــــل:

يعدّ التفصيـــل منهجا بيانيا في بناء معـــاني القرآن، و يكـــاد يكـــون نمطا مطّردا في بناء بلاغته. وهو خصوصيـــة من خصوصيات بيانه. فقـــد بين الله تعالـــى أنه يفصل الآيات بقوله تعالى:﴿ **الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾ ([1]).

ذكـــر الزمخشري :« (ثم فُصِّلت)، كما تُفصَّل القلائد بالفرائد» ([2]). ومعنى التفصيل هنا تتابعها ،وتعلُّق بعضها ببعض قصد الشرح والإيضاح. ومن ذلك التفصيل الوارد في سورة الأنعام.

فال تعالى:﴿ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾([3])، وقال تعالى:﴿ **وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ** ﴾ ([4]).

جاءت الآية الثانية تفصيلا وبيانا للآية الأولى ، وبيّن الرازي ذلك في قوله :« اعلم أنّه تعالى بيـــّن في هذه الآية تفصيل ما ذكـــره على سبيل الإجمال بقوله: (و ما يشعركم أنّها إذا جاءت لا يؤمنـــون)، فبيّن أنه تعالى لو أعطـــاهم ما طلبوه من إنزال الملائكـــة وإحياء الموتـــى حتـــى كلّمـــوهم، بل لو زاد في ذلك ما لا يبلغه اقتراحـــهم بأن يحشر عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله » ([5]).

د – العمـــــوم:

العـــام : هو لفظ يستغرق الصالح له من غير حصر ([6]) ، و العموم منهج من المناهج البيانية تمتزج فيه الآية بما قبلها بأن تكون تعميما لحكمها، و توسيعا لدلالتها ،وإحاطة بجهاتها. ومن ذلك ما جـــاء في قوله تعالـــى: ﴿ **وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُـــومُ السَّـــاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَـــرُ الْمُبْطِلُونَ** ﴾ ([7]).

يقول الرازي في تفسيره لهذه الآية :« واعلم أنّـــه لما احتجّ بكونه قادرا على الإحياء في المرة الأولى، وعلى كونه قادرا على الإحياء في المرة الثانية في الآيات المتقدمة عمّمَ الدليل فقال:(و لله

---

[1])- هود : 01 .
[2])- أبو القاسم الزمخشري ،الكشاف ، ج 02 / ص 257.
[3])- الأنعام : 109 .
[4])- الأنعام : 111 .
[5])- فخر الدين الرازي، التفسير الكبير ، ج 03 / ص 149 .
[6])- جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، لبنان ،1973 ، ج 02 / ص 16.
[7])- الجاثية : 27 .

ملك السمـــوات و الارض) ،أي: لله القـــدرة على الممكنات سواء كانت في السموات أو في الأرض» ([1]).

لقد جاءت هذه الآية تعميما لما قبلها ، لأن فعل إحياء الموتى و جمعهم يوم القيامة جزء من العام الذي هو جميع الممكـــنات ، سواء كانت من السمـــوات أو من الأرض و في هذا انتقال من الخـــاص، الذي هو إحيـــاء الموتى ، إلى العـــام، والذي هو جميـــع الممكنات في السموات أو الأرض.

هـــ – التخصيص:

التخصيص هو إخـــراج بعض ما يتناوله اللفظ ، و الفـــرق بينه و بين النسخ أنه يكـــون للبعض، و النسخ يكون للكل ([2]).

ذكر الرازي علاقة التخصيص في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِـــجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْـــلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْـــرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾ ([3]) .

يقول الرازي :« إنّ وجه الترتيب هو أن الله تعالى لّما قال (ألم تر أنّ الله سخر لكم ما في السمـــوات وما في الأرض) علـــى وجه العموم، وذكـــر منها بعض ما هو فيها على وجـــه الخصوص، بقوله: (يولج الليل في النهار)، و قوله: (و سخّر الشمس والقمر)، إشارة إلى ما في السمـــوات. وقوله بعد هـــذا (ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله) إشـــارة إلى ما في الأرض »([4]).

و ما نلاحظه في هذه العلاقة أنّها علاقةٌ ربط الآية بما سبقها بعدة آيات . وهذا عمل يؤكد تفطن الرازي وغيره من الأصوليين إلى ضرورة النظر إلى ما قبل الآية وما بعدها. وهذا هو إعمال السياق .

[1])- فخر الدين الرازي، التفسير الكبير ، ج 27/ ص 271 – 272 .
[2])- ناصر الدين عبد الله البيضاوي ، منهاج الوصول إلى علم الأصول، تح شعبان محمد إسماعيل، دار ابن حزم، بيروت، ط01، 2008 ص : 124 .
[3])- لقمان : 29 .
[4])- فخر الدين الرازي ، المصدر السابق ، ج 25 / ص 159 .

و – التأكيـــــد :

علاقة التأكيد من العلاقات الخفية ، فهي لا تظهر بهيئتها ، و إنما تجد لها إيحاءات تحت لغة الآيات ، ومن ذلك قوله تعالى :﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾([1]).

يقول الرازي في تفسيره لهذه الآية :« إنه تعالى لمـــّا ذكر كونه عالما بالجهر و السرّ وبما في الصدور ، ذَكَرَ الدليل على كونه عالما بهذه الأشياء . فقال : (ألا يعلم من خلق وهو اللطيـــف الخبير) » ([2]). و قد قال الله تعالـــى قبل هذه الآية : ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَـــنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ** ﴾([3]). و معناه أنّ الخالق لا بد أن يكون عالما بماهية المخلوق.

إنّ الرازي و إن لم يصرّح بالتأكيد، فإنه يفهم من قوله (ذَكَرَ الدليل) ، و لا يَذْكَرُ الدليل إلاّ للتأكيد .

يعتمد الرازي سياق السورة في الكشف عن معنى التأكيد في ربطه بين قوله تعالى: ﴿ **وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** ﴾ ([4]) ، وقوله : ﴿ **وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُـــمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُـــوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ** ﴾([5]).

يذكر الـــرازي :« أنـــّه سبحانه تعالى لمـــّا أخبر عنهم في الآية المتقدمة أنهـــم لا يتمنون الموت، أخبر في هذه الآية أنهم في غاية الحرص على الحياة » ([6]). و في هذا تأكيد على ما تقـــدّم من الإخبار عنهم بعدم تمنيهم الموت.

و استمر الرازي يكشف عن العلاقة بين الآية و بين الأخرى داخل سيـــاق السورة ، فنراه يتغلغل في ترتيب المعاني وتقديم بعضها على بعض، وينظر في سبب تقديم الآية على الأخرى قصد الكشف عن العلاقة بينهما.

و دراسة ترتيب الآيات منهجٌ سار عليه الرازي في تفسيره لمعظم القرآن الكريم، إن لم نقل كلّه. فقد راعى الفخر في هذه المنهج خصوصيات وأحوال الجملة داخل مجموعة من الجمل، كما هو الحال بالنسبة للكلمة داخل الجملة، فالجملة تُوضَعُ فيها الكلمة لاعتبارات في الكلمات المحيطة

[1])- الملك : 14 .
[2])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 30 / ص 66 .
[3])- الملك : 02 .
[4])- البقرة : 95 .
[5])- البقرة : 96 .
[6])- المصدر نفسه ، ج 03 / ص 192 .

بها، و تكون بلاغتها بمدى تعايش كلماتها و تمازجها و تفاعلها فيما بينها، فكذلك السورة لا يكون نموّها و اكتمالها إلاّ بملاحظة التواصل بين آياتها و اعتبار التآلف و التشارب بينها.

ز – المقابلة :

يكشف الرازي عن علاقة المقابلة داخل سياق السورة بين قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾([1]) ، و قوله تعالى :﴿ **قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ ([2]) .

يقول الرازي :« لمـّا وعد الله متبع الهدى بالأمن من العذاب و الحزن عقبه بذكر من أعدّ له العذاب الدائم فقال:(والذين كفروا و كذبوا بآياتنا) سواء كانوا من الإنس أو من الجنّ ، فهم أصحاب العذاب الدائم »([3]).

فالعلاقة بين الآيتين علاقة مقابلة و تضاد ، فقد ذكر في الأولى أهل النعيم ، ثمّ ذكر في الثانية أهل الجحيم.

[1])- البقرة : 39 .
[2])- البقرة : 38 .
[3])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبر ، ج 03 / ص 28 .

الخاتمة

الحمـــد لله الـــذي بنعمتـــه تتم الصالحـــات، أحمده وأشكر ه على توفيقه في البدء والختام ، وأصلي على خير الأنام نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، وعلى آله و صحبه الكرام.

أمّا بعد:

فلا يخفى على أحد أنّ كلّ باحث يطرق موضوعا لابدّ أنْ يسعى مـــن خلاله لأن يجيب على بعض التساؤلات ، ويخلص إلى بعض النتائج.

و من أهم النتائج التي توصّل إليها هذا البحث مايلي:

1- أدرك علماء المسمين القدامى مفهوم السياق بِمعناه الاصطلاحي، وقدَّموا أفكاراً وممارسات سياقية متميزة، أكَّدها البحث اللغوي وأثبت جدواها في التحليل اللغوي، وهذا يعني أنّهم سبقوا علماء اللغة المعاصرين الذين تُنسب إليهم نظرية السياق بأكثر من ألف سنة. وقد وجد البحث أن مصطلح السياق من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة يشمل السياق اللغوي والحالي أو كلّ ما يحيط باللفظ أو النص من ملابسات لفظية وغير لفظية، ويقابل هذا المفهوم مصطلحات مختلفة عند علماء المسلمين إذ استعملوا مصطلح السياق وسياق الكلام وقرينة السياق، وأرادوا بذلك السياق اللغوي. واستعملوا مصطلح المقام والحال ومقتضى الحال والقرائن(غير اللفظية)، وأرادوا به سياق الحال، أي: حال المتكلم والمخاطَب وموضوع الخطاب ومكان حدوثه وزمانه والمناسبة التي قيل فيها .

2- تلتقي آراء علماء اللغة المعاصرين مع آراء علماء المسلمين القدامى في ضرورة الاستناد إلى دلالة السياق لتحديد المعنى، وفهم دلالات الألفاظ والتراكيب والنصوص، وهذا يدلُّ على صلاحية نظرية السياق وفاعليتها في تحليل النصوص وتفسيرها.

3- أثبت البحث أنّ للسياق أهميةً كبرى في تعليل اختيـــار الألفاظ والصيغ، فلكلِّ لفظٍ أو صيغةٍ في القرآن الكريم دلالة خاصة يقتضيها السياق.

4- أثبت البحث أنه لا يوجد ترادف في القرآن الكريم، فدراسة الألفاظ المقول بترادفها في ضوء السياق ينفي عنها مظنة الترادف.

5- أثبت البحث أن اللفظ لا يدلُّ في السياق إلا على معنى واحد، فالألفاظ قد تدل على أكثر من معنى خارج السياق، لكنها لا تدلُّ في السياق إلا على المعنى الذي يريده المتكلم ويفهمه المخاطَب بمعونة القرائن السياقية.

6- أثبت البحث أن التقديم والتأخير في القرآن يأتي لأغراضٍ سياقية تتعلق بترتيب المعاني في نفس المتكلم وبغرضه من الخطاب، فضلاً عن مراعـــاة مقتضى حـــال المخاطَب، وملابسات الخطاب.

7- أثبت البحث أن السياق هو الذي يقتضي الحذف ويدلّ عليه، فلكلِّ حـــذفٍ في القرآن دلالاتٌ بلاغية مختلفة.

8- توصّل البحث إلى أن التماسك النصي يعدُّ من أهم مميزات القرآن، ويفسِّر كثيراً من الأسئلة التي أثيرت عن التكرار والترابط والتناسب، إذ تشير نتائج التحليل النصـــي إلى أنّ السياق القرآني يعمل على تماسك النص من خلال التكرار والتناسب بين الآيات .

9- وجد البحث أن القرآن لا يمكن أن تُسبر أغواره، أو تنكشف دلالاتُه على الوجه الأمثل إلا بمراعاة المناسبة والعلاقات بين آياته وسوره، وهذا لا يتأتَّ إلا بمراعاة السياق.

10- يصور السياق اللغوي تماسك النص القرآني ويكشف عن علاقاته الداخلية ووجوه تناسبه وترابطه، و يصور السيـــاق الحالي العلاقـــات بين النص وما يحيـــط به من ظـــروف وملابسات، فقد أنزل القـــرآن منجَّماً على وفق الأحـــداث ومقتضيات الأحـــوال، ومتطلبات الدعوة.

11- إنّ دلالة السياق تكشف عن خصوصية من أهم خصائص الإعجاز القرآني، وهي ذلك التناسق العجيب بين الترتيب الزمني علي وفق ترتيب النزول، وبين ترتيب المصحف، وهذا التناسق يقودنا إلى القول: إن كلَّ قصة قرآنية – وإن توزَّعت في سورٍ كثيرة – يربطها خيطٌ دقيق من التماسك والانسجام، بحيث يشكِّل كتلة واحدة متكاملة.

12-أثبت البحث أنَّ فهم قصد الشارع في القرآن الكريم لا يحصل على الوجه الأمثل إلا بمراعـــاة حال المخاطِب، والمخاطَب، وموضوع الخـــطاب، وغرضه، ومكان النـــزول وزمانه وأسبابه، وكل ما يحيط بالنص من ظروف وملابسات.

إن تنبُّهَ علماء العربية القدماء ـــ رحمهم الله ـــ لهذه النظرية لا يجعلنا ننكر فضل المحدثين في إخراجها مخرج النظرية العلمية الحديثة ، فتبقى النظرية من ثمار البحث اللغوي الحديث .

قائمة المصادر و المراجع

القـــــــرآن الكريم

01- الأخفش أبو الحسن سعيد بن مسعدة، معاني القـــرآن، تحقيق هـــدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، دط.

02-الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القـــرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة،بيروت، د ت.

03-الباقلاني أبو بكر محمـــد، إعجاز القرآن، تحقيق أحمد صقـــر، دار المعارف مصر،د ط.

04- بدوي أحمد أحمد، من بلاغة القرآن، نهضة مصر، الطبعة الخامسة، 2008.

05- البيضاوي ناصر الدين عبد الله، منهاج الوصول إلـــى علم الأصـــول، تحقيق شعبان محمد إسماعيل، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، 2008.

06- ابن جبير أبو الحسن محمد بن أحمد، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت لبنان، دط.

07- الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي ، القاهرة، 2000.

08- ابن الجوزي أبو الفرج جمال الديـــن، زاد المســـير في علم التفســـير، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1965.

09- ابن جني أبو الفتح عثمان، الخصـــائص، تحقيق محمد عي النجار، دار الشؤون الثقافية، بغداد، العراق، الطبعة الأولى ، 1990 .

10- حبلص محمـــد يوسف، البحث الدلالي عند الأصوليـــين، مكتبة عالم الكتب الطبعة الأولى ، 1991.

11- حساني احمد، مباحث في اللسانيات، ديوان المطبوعات، الجزائر ،د ط.

12- حسن تمام ، اللغة العربية معناها و مبناها ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب،1994.
13- حمادي إدريس ، المنهج الأصولي في فقه الخطاب، المركز الثقافي العربي بيروت، الطبعة الأولى، 1998.
14- حمودة طاهر سليمان، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، الدار الجامعية للطباعة و النشر و التوزيع، الإسكندرية، د ط.
15- حوى سعيد، الأساس في التفسير، دار السلام، القاهرة، الطبعة 01، 1985.
16- خليف فتح الله، فخر الدين الرازي ، دار الجامعات المصرية ، 1976.
17- الداية فايز، علم الدلالة العربي، دار الفكر ، دمشق، د ط ، 1985.
18- دغيم سميح، موسوعة مصطلحات الإمام فخر الدين الرازي ، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الأولى،2001.
19- الذهبي محمد حسين، التفسير والمفسرون، دار الحديث القاهرة، دط، 2005.
20- الرازي محمد بن أبي بكر ، مختار الصحاح، دار مكتبة الهلال، د ط .
21- الرازي فخر الدين:1- التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، دت.
2- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1985.
22- الزركان محمد صالح، فخر الدين الرازي و آراؤه الكلامية والفلسفية، دار الفكر ،د ط.
23- الزركشي بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث ، القاهرة ، د ط .
24- الزمخشري أبو القاسم جار الله، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الفكر ، الطبعة الأولى ، 1977.

25- السامرائي فاضل صالح، التعبير القرآني دراسات بيانية في الأسلوب القرآني،دار الفجر للطباعة و النشر، العراق، الطبعة الأولى، 2008.
26- سلطان منير، بلاغة الكلمة و الجملة و الجمل ، مركز الدلتا للطباعة،الإسكندرية د ط، 1988.
27- السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، د ط، 1973.
28-الشافعي محمد بن إدريس، الرسالة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، د ط .
29-شاكر محمود، التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي ، بيروت، الطبعة الأولى ،1405هـ/1985م.
30- الصابوني محمد علي، صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت، الطبعة الثانية، 1981.
31- الصعيدي عبد المتعال، القضايا الكبرى في الإسلام، دار شريفة، بوزريعة، الجزائر ، 1991.
32- عبد الطيف محمد حماسة ، النحو و الدلالة ، دار الشروق، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1420هـ / 2000م .
33-ابن عطية أبو محمد عبد الحق، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2001 .
34- ابن عقيل بهاء الدين عبدالله، شرح ابن عقيل، الطبعة الثانية ، د ت.
35- عمر أحمد مختار، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الخامسة 1998.
36- أبو عودة عودة خليل، التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن، مكتبة المنار ، الزرقاء، الأردن، الطبعة الأولى ، 1985.

37- الغلاييني مصطفى، جامع الدروس العربية ، المكتبة المصرية، صيدا، بيروت، دط.
38- ابن فارس أبو الحسن أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر ، الطبعة الثانية، د ت .
39- ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم، تأويل مشكل القرآن، تحقيق أحمد صقر، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، الطبعة الثالثة، 1981.
40- القرطبي أبو عبد الله ، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ، 1988.
41- القزويني الخطيب ، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب البناني، الطبعة الرابعة، 1975.
42- قطب سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة عشر،1987.
43- القفطي جمال الدين ، تاريخ الحكماء ، مطبعة الخانجي ، د ت .
44- الكناني أبو قدامة أشرف، الأدلة الاستئناسية عند الأصوليين، دار النفائس، عمان، الأردن ، الطبعة الأولى ، 2005 .
45- ابن مالك بدر الدين، المصباح في المعاني و البيان والبديع، تحقيق حسني عبد الجليل يوسف ، مكتبة الآداب ومطبعتها، الطبعةالأولى ، 1989 .
46- المخزومي مهدي، في النحو العربي ، نقد و توجيه، دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1986.
47-ابن منظور أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب ، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى ، 1997 .
48- أبو موسى محمد ، خصائص التركيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية، د ت.

49- أبو موسى محمد، دلالات التركيب، دار العلم للطباعة ، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى ، 1979.

50- الناصر عمارة، اللغة و التأويـــل، دار الفرابي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1428هـــ/ 2007م.

المخطوطات و الرسائل الجامعية :

01- عبد الرحمان مروان بن سعيد، دراسة أسلوبيـــة في سورة الكهـــف، مخطوط، أطروحة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، 2006.

02- هنادي محمد عبد القادر، جهود الفخر الرازي في النحو و الصرف، مخطوط، رسالة دكتوراة ، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1985.

الدوريات والمجلات:

01- فتحي إبراهيم، معجم المصطـــلحات الأدبية، التعاضدية العمـــالية للطبـــاعة والنشر، العدد 01، 1988.

فهرس الموضوعات

العنـــــــــــوان	الصفحة
المقدمـــــة	
المدخـــــــل: ملمح عام في السياق.....	02
01 - فخر الدين الرازي.....	ـــــ
- مولـده.....	21
- نشأته.....	02
- صفاته.....	ـــــ
- عصره.....	12
- حياته الاجتماعية.....	02
- حياته الثقافية.....	02
- مذهبه.....	03
- مكانته الفكرية.....	05
- مؤلفاته.....	07
- التعريف بالتفسير الكبير.....	08
02 – السيـــــــــــاق:.....	09
- تعريف السياق.....	10
- السياق عند الغربيين.....	10
- أنواع السياق.....	11
- السياق اللغوي.....	13
- السياق غير اللغوي.....	ـــــ
- السياق العاطفي.....	21

- سياق الموقف..... 13
- السياق الثقافي..... 14
- السياق عند علماء التراث..... 15
- السياق عند المفسرين..... ـــــ
- السياق عند الأصوليين..... 16
15
15
ـــــ
16
16
16
16
17
ـــــ
21
19
20

الفصـــــل الأول: أثر السياق في اختيار الألفاظ..... 23
توطئة..... ـــــ
01 - أثر السياق في اختيار الكلمة..... 65
- أثر السياق في اختيارالأسماء..... 23
- أثر السياق في اختيار الأفعال..... 25
- أثر السياق في اختيارالحروف..... ـــــ
02 - المشتقات وملاءمتها للسياق..... 42

- ملاءمة الفعل المبني للمجهول للسياق..... 26
- ملاءمة صيغتي (تفْعِل) و(تفاعَلَ) للسياق..... 30
- ملاءمة صيغتي (تفعَّل) و(فَعَّل) للسياق..... 36
- ملاءمة صيغة اسم الفاعل للسياق..... 43
- ملاءمة الفعل الماضي للسياق.....

  - دلالته على بعد الزمن..... 49
  - دلالته على الاستمرار..... 43
  - دلالته على المستقبل القريب..... 43
  - دلالته على أنّ الشيء لازم الحصول في المستقبل..... 44

03 - أثر السياق في اختيار المفرد و الجمع..... 45

04 - مجالات استخدام اللفظة القرآنية..... 47

05 - أثر السياق القرآني في التطور الدلالي للكلمة.....

48

47

47

48

48

50

55

56

58

59
63
الفصــل الثانــي: أثر السياق في اختيار التراكيب..... 65
توطئة.....
01 -التقديم و التأخير..... 95
- المفهوم الاصطلاحي لأسلوب التقديم و التأخير 65
- تقديم المسند إليه..... 67
- تقديم المعطوفات وتأخيرها.....
- تقديم المفرد على مثله..... 75
- تقديم الجملة..... 67
02 - الحذف..... 68
- حذف الاسم..... 70
- حذف الفعل.....
- حذف الحرف..... 75
- حذف الجملة..... 70
03 - أسلوب الاستفهام..... 74
- المفهوم الاصطلاحي للاستفهام 76
- أثر الاستفهام في الكلام.....
- أثر السياق في استنباط المعاني البلاغية التي يفيدها الاستفهام... 88
77
80
83
87

89
95
89
89
91

الفصل الثالث: تأطير السياق على مستوى السورة..... 96 ـــ
توطئة. 132
01 – علاقة الفواتح بالمقاصد -..... 97
02 - أثر السياق في فهم دلالة الفواصل و الخواتم..... 98 ـــ
- الفواصل..... 106
- الخواتـم..... 107 ـــ

03 - التكـرار..... 119
- التكرار في اللفظ و المعنى..... 107
- التكرار في المعنى دون اللفظ..... 116
- تكرار اللفظ دون المعنى..... 120 ـــ
- تكرار الضمائر..... 125
04 - الربط بين الآيـة و الآيـة..... 120
- التعليل..... 123
- زيادة بيان..... 124
- التفصيل..... 125
- العموم..... 126 ـــ
- التخصيص..... 132
- التأكيد..... 127
- المقابلة..... 128
129
129
130
131
132
الخاتمة 134
قائمة المصادر والمراجع..... 137
فهرس الموضوعات..... 143